Jan 28 - 1912

"Broken Wings"

الاجنحة المتكسرة

تأليف

جبران خليل جبران



طُبع في مطبعة جريدة مرآة الغرب — نيو يورك سنة ١٩١٢

الاجنحة المتكسرة

تأليف

جبران خليل جبران



طبع في مطبعة جريدة مرآة الغرب — نيو يورك سنة ١٩١٢

To her who gazes at the sun with fixed eyes: who touches the Fire with fingers that tremble not; who hears the songs of the Absolute while in the midst of the hollowing blind. — To M.E.H. I dedicate this book.

Gibran

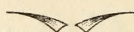
الى التي تحدق بالشمس
باجفان جامدة · وتقبض على
النار باصابع غير مرتعشة ·
وتسمع نغمة الروح «الكلي»
من وراء ضجيج العميان
وصراخهم · الى M. E. H.
ارفع هذا الكتاب

جبران

١

Forwards

توطئــة



كنتُ في الثامنة عشرة عندما فتح الحبُّ عينيَّ باشعته السحرية ، ولمس نفسي لاول مرة باصابعه النارية · وكانت سلمى كرامه المرأَة الاولى التي ايقظت روحي بمحاسنها ، ومشت امامي الى جنة العواطف العلوية حيث تمرُّ الايام كالاحلام وتنقضي الليالي كالاعراس

سلمى كرامه هي التي علمتني عبادة الجمال بجمالها ، وأَرتني خفايا الحب بانعطافها ، وهي التي أَنشدت على مسمعي اول بيت من قصيدة الحياة المعنوية

ايُّ فتىً لا يذكر الصبية الاولى التي أَبدلت غفلة شبيبته بيقظة هائلة بلطفها ، جارحة بعذوبتها ، فتاكة

بحلاوتها ؟ مَن منا لا يذوب حنيناً الى تلك الساعة الغريبة التي اذا انتبه فيها فجأةً رأى كليتهُ قدانقلبت وتحوَّلت واعماقهُ قد اتسعت وانبسطت وتبطنت بانفعالات لذيذة بكل ما فيها من مرارة الكتمان ، مستحبة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق والسهاد

لكل فتىً سلمى تظهر عَلَى حين غفلة في ربيع حياته وتجعل لانفراده معنىً شعرياً وتبدّل وحشة ايامه بالانس ، وسكينة لياليه بالانغام

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والاسفار عندما سمعتُ الحب يهمس بشفتي سلمى في آذان نفسي ، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم في الفردوس عندما رأيت سلمى منتصبة امامي كعمود النور ، فسلمى كرامه هي حواءُ هذا القلب المملوء بالاسرار والعجائب وهي التي أفهمتهُ كنه هذا الوجود واوقفتهُ

كالمرآة امام هذه الاشباح ٠٠٠ حواءُ الاولى أَخرجت آدم من الفردوس بارادتها وانقياده اما سلمى كرامه فأَدخلتني الى جنة الحب والطهر بحلاوتها واستعدادي ، ولكن ما اصاب الانسان الاول قد اصابني والسيف الناري الذي طرده من الفردوس هو كالسيف الذي أَخافني بلمعان حده وأَبعدني كرهاً عن جنة المحبة قبل ان اخالف وصية وقبل ان اذوق طعم ثمار الخير والشر

واليوم ، وقد مرت الاعوامُ المظلمة طامسةً باقدامها رسوم تلك الايام ، لم يبقَ لي من ذلك الحلم الجميل سوى تذكارات موجعة ترفرف كالاجنحة غير المنظورة حول رأْسي ، مثيرةً تنهدات الاسى في اعماق صدري ، مستقطرةً دموع اليأْس والاسف من اجفاني ٠٠٠ وسلمى — سلمى الجميلة العذبة قد ذهبت الى ما وراء الشفق الازرق ولم يبقَ من آثارها في هذا العالم سوى غصات اليمة في قلبي وقبر رخامي

منتصب في ظلال اشجار السرو. فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقي ليحدّث الوجود عن سلمى كرامه. غير ان السكينة التي تخفر القبور لاتفشي ذلك السر المصون الذي أَخفتهُ الالهة في ظلمة التابوت، والاغصان التي امتصت عناصر الجسد لاتبيح بحفيفها مكنونات الحفرة. اما غصات واوجاع هذا القلب فهي التي تتكلم وهي التي تنسكب الان مع قطرات الحبر السوداء معلنة للنور اشباح تلك المأساة التي مثلها الحب والجمال والموت

فيا اصدقاء شبيبتي المنتشرين في بيروت اذا مررتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين وسيروا ببطء كيلا تزعج اقدامكم رفات الراقدين تحت اطباق الثرى وقفوا متهيبين بجانب قبر سلمى وحيوا عني التراب الذي ضم جثمانها ثم اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم: ههنا دُفنت آمال ذلك الفتى الذي نفتهُ صروف الدهر الى ما

وراء البحار ، وهنا توارت امانيه وانزوت افراحه وغارت دموعه واضمحلت ابتساماته ، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبتهُ مع اشجار السرو والصفصاف ، وفوق هذا القبر ترفرف روحه كل ليلة مستأنسة بالذكرى ، مردّدة مع اشباح الوحشة ندبات الحزن والاسى ، نائحةً مع الغصون عَلَى صبية كانت بالامس نغمةً شجية بين شفتي الحياة فاصبحت اليوم سرًّا صامتاً في صدر الارض

استحلفكم يارفاق الصبا بالنساء اللواتي احببتهنَّ قلوبكم ان تضعوا اكاليل الازهار عَلَى قبر المرأة التي أَحبها قلبي — فرب زهرة تلقونها عَلَى ضريح منسيّ تكون كقطرة الندى التي تسكبها اجفان الصباح بين اوراق الوردة الذابلة

***

٢

الكآبة الخرساء

انتم ايها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع رسومهِ متأسفين عَلَى انقضائهِ، اما انا فاذكره مثلما يذكر الحرُّ المعتوق جدرانَ سجنه وثقلَ قيوده. انتم تدعون تلك السنين التي تجيءُ بين الطفولية والشباب عهداً ذهبياً يهزأُ بمتاعب الدهر وهواجسه ويطير مرفرفاً فوق رؤُوس المشاغل والهموم مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة سائرةً نحو البساتين المزهرة، اما انا فلا استطيع ان ادعو سني الصبا سوى عهد آلام خفية خرساء كانت تقطن قلبي وتثور كالعواصف في جوانبه وتتكاثر نامية بنموه ولم تجد منفذاً تنصرف منهُ الى عالم المعرفة حتى دخل اليه الحب

وفتح ابوابهُ وأَنار زواياه ، فالحب قد عتق لساني فتكلمت ومزَّق اجفاني فبكيت وفتح حنجرتي فتنهدت وشكوت

انتم ايها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات وجوانب الشوارع التي رأَت العابكم وسمعت همس طهركم ، وانا ايضاً اذكر تلك البقعة الجميلة من شمال لبنان ، فما أَغمضتُ عينيَّ عن هذا المحيط الا ورأَيتُ تلك الاودية المملوءة سحراً وهيبةً ؛ وتلك الجبال المتعالية بالمجد والعظمة نحو العلاء ، ولا صممتُ أُذنيَّ عن ضجة هذا الاجتماع الا وسمعتُ خريرَ تلك السواقي وحفيفَ تلك الغصون . ولكن هذه المحاسن التي اذكرها الان واشوق اليها شوق الرضيع الى ذراعي أُمه هي هي التي كانت تعذّب روحي المسجونة في ظلمة الحداثة مثلما يتعذَّب البازي بين قضبان قفصه عندما يرى اسراب البزاة تسبح حرَّةً في الخلاء الوسيع — وهي التي كانت تملأُ صدري باوجاع التأَمل ومرارة التفكير

وتنسج باصابع الحيرة والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط حول قلبي — فلم اذهب الى البرّية الا وعدتُ منها كئيباً جاهلاً اسباب الكآبة . ولا نظرتُ مساءً الى الغيوم المتلوّنة باشعة الشمس الا وشعرتُ بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني الانقباض . ولا سمعتُ تغريدة الشحرور او أُغنية الغدير الا ووقفتُ حزيناً لجهلي موحيات الحزن

يقولون ان الغباوة مهد الخلو والخلو مرقد الراحة — وقد يكون ذلك صحيحاً عند الذين يولدون امواتاً و يعيشون كالاجساد الهامدة الباردة فوق التراب ، ولكن اذا كانت الغباوة العمياء قاطنةً في جورا العواطف المستيقظة تكون الغباوة اقسى من الهاوية وامرّ من الموت . والصبي الحساس الذي يشعر كثيراً و يعرف قليلاً هو اتعس المخلوقات امام وجه الشمس لان نفسهُ تظل واقفة بين قوتين هائلتين متباينتين قوة خفية تحلق به السحاب وتريه محاسن

الكائنات من وراء ضباب الاحلام ، وقوة ظاهرة تقيده بالارض وتغمر بصيرتهُ بالغبار وتتركه ضائعاً خائفاً في ظلمة حالكة

للكآبة ايادٍ حريرية الملامس قوية الاعصاب تقبض عَلَى القلوب وتؤلمها بالوحدة ، فالوحدة حليفة الكآبة كما انها اليفة كل حركة روحية . ونفس الصبي المنتصبة امام عوامل الوحدة وتأثيرات الكآبة شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتعش امام النسيم وتفتح قلبها لاشعة الفجر وتضم اوراقها بمرور خيالات المساء ، فإن لم يكن للصبي من الملاهي ما يشغل فكرتهُ ومن الرفاق مَن يشاركه في الاميال كانت الحياة امامهُ كحبس ضيق لا يرى في جوانبه غير انوال العناكب ولا يسمع من زواياه سوى دبيب الحشرات

اما تلك الكآبة التي اتبعت ايام حداثتي فلم تكن ناتجة عن حاجتي الى الملاهي لانها كانت متوفرة لديَّ . ولا عن

افتقاري الى الرفاق لانني كنتُ اجدهم اينما ذهبت ، بل هي من اعراض علة طبيعية في النفس كانت تحبب اليَّ الوحدة والانفراد وتميت في روحي الاميال الى الملاهي والالعاب وتخلع عن كتفيَّ اجنحة الصبا وتجعلني امام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوءه المحزن رسوم الاشباح والوان الغيوم وخطوط الاغصان ولكنهُ لا يجد ممراً يسير فيه جدولاً مترنمًا الى البحر

هكذا كانت حياتي قبل ان ابلغ الثامنة عشرة ، فتلك السنة هي من ماضيَّ بمقام القمة من الجبل لانها اوقفتني متأملاً تجاه هذا العالم وأَرتني سبل البشر ومروج اميالهم وعقبات متاعبهم و كهوف شرائعهم وتقاليدهم

في تلك السنة ولدتُ ثانية والمرءُ ان لم تحبل به الكآبة ويتمخض به اليأس وتضعهُ المحبة في مهد الاحلام تظلُ حياتهُ كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان

في تلك السنة شاهدتُ ملائكة السماء تنظر اليَّ من وراء اجفان امرأَة جميلة وفيها رأَيت ابالسة الجحيم يضجون ويتراكضون في صدر رجل مجرم — ومن لا يشاهد الملائكة والشياطين في محاسن الحياة ومكروهاتها يظلُّ قلبهُ بعيداً عن المعرفة ونفسهُ فارغة من العواطف

***

٣

يدُ القضاء

كنتُ في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب ، وكان نيسان قد أَنبت الازهار والاعشاب فظهرت في بساتين المدينة كأَنها اسرار تعلنها الارض للسماء · وكانت اشجار اللوز والتفاح قد اكتست بحلل بيضاء معطرة فبانت بين المنازل كأَنها حوريات بملابس ناصعة قد بعثت بهنَّ الطبيعة عرائس وزوجات لابناء الشعر والخيال

الربيع جميل في كل مكان ولكنهُ اكثر من جميل في سوريا ··· الربيع روح اله غير معروف تطوف في الارض مسرعة وعندما تبلغ سوريا تسير ببطءٍ متلفتةً الى الوراء مستأْنسة بارواح الملوك والانبياء الحائمة في الفضاء ، مترنمةً

مع جداول اليهودية باناشيد سليمان الخالدة ، مرددة مع ارز لبنان تذكارات المجد القديم

وبيروت في الربيع اجمل منها في ما بقي من الفصول لانها تخلو فيه من اوحال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين امطار الاول وحرارة الثاني كصبية حسناء قد اغتسلت بمياه الغدير ثم جلست عَلَى ضفتهِ تجفف جسدها باشعة الشمس

ففي يوم من تلك الايام المفعمة بانفاس نيسان المسكرة وابتساماتهِ المحيية ، ذهبتُ لزيارة صديق يسكن بيتاً بعيداً عن ضجة الاجتماع · وبينما نحن نتحدث راسمين بالكلام خطوط آمالنا واماانينا دخل علينا شيخٌ جليل في الخامسة والستين من عمره تدل ملابسهُ البسيطة وملامحهُ المتجعدة عَلَى الهيبة والوقار ، فوقفتُ احتراماً وقبيل ان اصافحهُ مسلماً تقدَّم صديقي وقال « حضرتهُ فارس افندي كرامه » ثم لفظ اسمي مشفوعاً بكلمة ثناء ، فاحدق بي الشيخ هنيهة لامساً

باطراف اصابعه جبهته العالية المكللة بشعر ابيض كالثلج كأنه يريد ان يسترجع الى ذاكرته صورة شيءٍ قديمٍ مفقود ، ثم ابتسم ابتسامة سرور وانعطاف واقترب مني قائلاً « انت ابن صديق حبيب قديم صرفتُ ربيع العمر برفقته فما اعظم فرحي بمرآك ، وكم انا مشتاق الى لقاء ابيك بشخصك »

فتأثرتُ لكلامه وشعرت بجاذبٍ خفيٍّ يدنيني اليه بطمأنينة مثلما تقود الغريزةُ العصفورَ الى وكره قبيل مجيء العاصفة . ولما جلسنا أخذ يقصّ علينا احاديث صداقته لوالدي متذكراً ايام الشباب التي صرفها بقربه تالياً عَلَى مسامعنا اخبار اعوام قضت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها في صدره ..

ان الشيوخ يرجعون بالفكر الى ايام شبابهم رجوع الغريب المشتاق الى مسقط رأسه ويميلون الى سرد حكايات الصبا ميل الشاعر الى تنغيم ابلغ قصائده ، فهم يعيشون بالروح في زوايا الماضي الغابر لان الحاضر يمرّ بهم ولا يلتفت

والمستقبل يبدو لاعينهم متشحاً بضباب الزوال وظلمة القبر

وبعد ساعة مرَّت بين الاحاديث والتذكارات مرور ظل الاغصان عَلَى الاعشاب ، وقف فارس كرامه للانصراف ، ولما دنوت منه مودعاً اخذ يدي بيمينه ووضع شماله عَلَى كتفي قائلاً « انا لم أرَ والدك منذ عشرين سنة ولكنني ارجو ان استعيض عن بعاده الطويل بزياراتك الكثيرة »

فانحنيتُ شاكراً واعداً بتتميم ما يجب عَلَى الابن نحو صديق ابيه

ولما خرج فارس كرامه استزدتُ صاحبي من اخباره فقال بلهجة يساورها التحذر « لا اعرف رجلاً سواه في بيروت قد جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة مثرياً . هو واحد من القليلين الذين يجيئون هذا العالم ويغادرونه قبل ان يلامسوا بالاذى نفس مخلوق — ولكن هؤلاء الرجال يكونون غالباً تعساء مظلومين لانهم يجهلون سبل الاحتيال

التي تنقذهم من مكر الناس وخبثهم .. ولفارس كرامه ابنة وحيدة تسكن معه منزلاً فخماً في ضاحية المدينة وهي تشابهه بالاخلاق وليس بين النساء من يماثلها رقةً وجمالاً — وهي ايضاً ستكون تاعسة لان ثروة والدها الطائلة توقفها الان عَلَى شفير هاوية مظلمة مخيفة »

لفظ صديقي الكلمات الاخيرة وظهرت عَلَى محياه لوائح الغم والاسف ثم زاد قائلاً « فارس كرامه شيخ شريف القلب كريم الصفات ولكنه ضعيف الارادة يقوده رياء الناس كالاعمى وتوقفه مطامعهم كالاخرس . اما ابنته فتخضع ممتثلة لارادته الواهنة عَلَى رغم كل ما في روحها الكبيرة من القوى والمواهب . وهذا هو السر الكريه الكامن وراء حياة الوالد وابنته . وقد فهم هذا السر رجل يأتلف في شخصه الطمع بالرياء والخبث بالدهاء . وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظل الانجيل فتظهر للناس كالفضائل .

هو رئيس دين في بلاد الاديان والمذاهب تخافه الارواح والاجساد وتخرُّ لديه ساجدةً مثلما تنحني رقاب الانعام امام الجزَّار . ولهذا المطران ابن اخ تتصارع في نفسه عناصر المفاسد والمكاره مثلما تتقلب العقارب والافاعي عَلَى جوانب الكهوف والمستنقعات وليس بعيداً اليوم الذي ينتصب فيه المطران بملابسه الحبرية جاعلاً ابن اخيه عن يمينه وابنة فارس كرامه عن شماله رافعاً بيده الاثيمة اكليل الزواج فوق رأسيهما مقيداً بسلاسل التكهين والتعزيم جسداً طاهراً بجيفة منتنة جامعاً في قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماوية بذات ترابية واضعاً قلب النهار في صدر الليل .. هذا كل ما استطيع ان اقوله لك الان عن فارس كرامه وابنته فلا تسلني اكثر من ذلك لان ذكر المصيبة يدنيها مثلما يقرب الموتَ الخوفُ من الموت »

وحوَّل صديقي وجهه ونظر من النافذة الى الفضاء

كأَنه يبحث عن اسرار الايام والليالي بين دقائق الاثير

فقمتُ اذ ذاك من مكاني ولما أَخذتُ يده مودعاً قلت له « غداً أَزور فارس كرامه قياماً بوعدي له واحتراماً للتذكارات التي ابقتها صداقته لوالدي »

فبهت بي الشاب دقيقةً وقد تغيرت ملامحه كأَن كلماتي القليلة البسيطة قد اوحت اليه فكراً جديداً هائلاً ، ثم نظر في عينيَّ نظرة طويلة غريبة — نظرة محبة وشفقة وخوف — نظرة نبي يرى في اعماق الارواح ما لا تعرفه الارواح ، ثم ارتعشت شفتاه قليلاً ولكنه لم يقل شيئاً فتركته وسرتُ نحو الباب بافكار متضعضعة ، وقبيل ان التفت الى الوراء رأَيتُ عينيه ما زالتا تتبعانني بتلك النظرة الغريبة — تلك النظرة التي لم افهم معانيها حتى عُتقت نفسي من عالم المقاييس والكمية وطارت الى مسارح الملإِ الاعلى حيث تتفاهم القلوب بالنظرات وتنمو الارواح بالتفاهم



At the Threshold of the Temple.

في باب الهيكل



وبعد ايام وقد مللتُ الوحدة وتعبت اجفاني من النظر الى اوجه الكتب العابسة علوتُ مركبة طالباً منزل فارس كرامه ، حتى اذا ما بلغت بي غابة الصنوبر حيث يذهب القوم للتنزه حوّل السائق وجهة فرسيه عن الطريق العمومية فسارا خبباً عَلَى ممر تظلله اشجار الصفصاف وتتمايل عَلَى جانبيه الاعشاب والدوالي المتعرشة وازاهر نيسان المبتسمة بثغور حمراء كالياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب

وبعد دقيقة وقفت المركبة امام منزل منفرد تحيط به حديقة مترامية الاطراف تتعانق في جوانبها الاغصان وتعطر فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين

ما سرتُ بضع خطوات في تلك الحديقة حتى ظهر فارس كرامه في باب المنزل خارجاً للقائي كأن هدير المركبة في تلك البقعة المنفردة قد اعلن له قدومي — فهشَّ متأهلاً وقادني مترحباً الى داخل الدار ونظير والد مشتاق اجلسني بقربه يحدثني مستفسراً عن ماضيَّ مستطلعاً مقاصدي في مستقبلي فكنتُ أجيبهُ بتلك اللهجة المفعمة بنغمة الاحلام والاماني التي يترنم بها الفتيان قبل ان تقذفهم امواج الخيال الى شاطئ العمل حيث الجهاد والنزاع . . للشبيبة اجنحة ذات ريش من الشعر واعصاب من الاوهام ترتفع بالفتيان الى ما وراء الغيوم فيرون الكيان مغموراً باشعة متلونة بالوان قوس القزح ويسمعون الحياة مرتلة اغاني المجد والعظمة ولكن تلك الاجنحة الشعرية لا تلبث ان تمزقها عواصف الاختبار فيهبطون الى عالم الحقيقة — وعالم الحقيقة مرآة غريبة يرى فيها المرء نفسه مصغرةً مشوهة

في تلك الدقيقة ظهرت من بين ستائر الباب المخملية صبية ترتدي ثوباً من الحرير الابيض الناعم ومشت نحوي ببطءٍ فوقفتُ ووقف الشيخ قائلاً « هذه ابنتي سلمى » وبعد ان لفظ اسمي شفعهُ بقوله « ان ذاك الصديق القديم الذي حجبتهُ عني الايام قد عادت وأَبانتهُ لي بشخص ابنه فانا أَراه الان ولا أَراه » . فتقدَّمت الصبية اليَّ وأَحدقت بعينيَّ هنيهةً كأَنها تريد ان تستنطقهما عن حقيقة امري وتعلم منهما اسباب مجيئي الى ذلك المكان ثم اخذت يدي بيد تضارع زنبقة الحقل بياضاً ونعومةً فأَحسستُ عند ملامسة الاكف بعاطفة غريبة جديدة اشبه شيءٍ بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينهِ في مخيلة الكاتب

جلسنا جميعاً ساكتين كأَن سلمى قد أَدخلت معها الى تلك الغرفة روحاً علوية توعز الصمت والتهيب وكأَنها شعرت بذلك فالتفتت نحوي وقالت مبتسمةً « كثيراً ما

حدثني والدي عن ابيك معيداً عَلَى مسمعي حكايات شبابهما، فان كان والدك قد اسمعك بتلك الوقائع لا يكون هذا اللقاء هو الاول بيننا »

فسرّ الشيخ بكلمات ابنتهِ وانبسطت ملامحهُ ثم قال « ان سلمى روحية الاميال والمذاهب فهي ترى جميع الاشياء سابحةً في عالم النفس »

وهكذا عاد فارس كرامه الى محادثتي باهتمام كليّ ورقة متناهية كأَنه وجد فيَّ سرًّا سحرياً يرجعه عَلَى اجنحة الذكرى الى ربيع ايامه الغابرة

كان ذلك الشيخ يحدق بي مسترجعاً اشباح شبابه وانا اتأَمله حالماً بمستقبلي. كان ينظر اليَّ مثلما تخيم اغصان الشجرة العالية المملوءَة بمآتي الفصول فوق غرسة صغيرة مفعمة بعزم هاجع وحياة عمياء. شجرة مسنة راسخة الاعراق قد اختبرت صيف العمر وشتاءَه ووقفت امام عواصف

الدهر وانوائه · وغرسة ضعيفـة لينة لم ترَ غير الربيع ولم ترتعش الاَّ ببرور نسيم الفجر

اما سلمى فكانت ساكتة تنظر اليَّ تارةً وطوراً الى ابيها كأنها تقرأُ في وجهينا اول فصل من رواية الحياة وآخر فصل منها

قضى ذلك النهار متنهداً انفاسه بين تلك الحدائق والبساتين وغابت الشمس تاركة خيال قبلة صفراء عَلَى قمم لبنان المتعالية قبالة ذلك المنزل وفارس كرامه يتلو عليَّ اخباره فيذهلني وانا اترنم امامه باغاني شبيبتي فاطربه ، وسلمى جالسة بقرب تلك النافذة تنظر الينا بعينيها الحزينتين ولا تحترك وتسمع احاديثنا ولا تتكلم كانها عرفت ان للجمال لغة سماوية تترفع عن الاصوات والمقاطيع التي تحدثها الشفاه والالسنة ـ لغة خالدة تضمّ اليها جميع انغام البشر وتجعلها شعوراً صامتاً مثلما تجتذب البحيرةُ الهادئة اغاني السواقي الى

اعماقها وتجعلها سكوتاً ابدياً · ان الجمال سرٌّ تفهمه ارواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته اما افكارنا فتقف امامه محتارةً محاولةً تحديده وتجسيده بالالفاظ ولكنها لا تستطيع — هو سيّالٌ خافٍ عن العين يتموج بين عواطف الناظر وحقيقة المنظور · الجمال الحقيقي هو اشعةٌ تنبعث من قدس اقداس النفس وتنير خارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من اعماق النواة وتكسب الزهرة لوناً وعطراً — هو تفاهم كليّ بين الرجل والمرأة يتم بلحظةٍ وبلحظةٍ يولد ذلك الميل المترفع عن جميع الاميال — ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حباً ·

فهل فهمت روحي روح سلمى في عشية ذلك النهار فجعلني التفاهم ان اراها اجمل امرأَة امام الشمس ام هي سكرة الشبيبة التي تجعلنا نتخيل رسوماً واشباحاً لا حقيقة لها ؟ هل اعمتني الفتوة فتوهمتُ الاشعة في عيني سلمى والحلاوة في ثغرها والرقة في قدها ام هي تلك الاشعة وتلك الحلاوة

وتلك الرقة التي فتحت عينيَّ لتريني افراح الحب واحزانه ؟ لا ادري ولكنني اعلم بانني شعرت بعاطفة لم اشعر بها قبل تلك الساعة · عاطفــة جديدة تمايلت حول قلبي بهدوءٍ يشابه رفرفة الروح عَلَى وجه الغمر قبل ان تبتدئ الدهور· ومن تلك العاطفة قد تولدت سعادتي وتعاستي مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بارادة ذلك الروح

هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بسلمى للمرة الأولى وهكذا شاءَت السماء وعتقتني عَلَى حين غفلة من عبودية الحيرة والحداثة لتسيرني حرًّا في موكب المحبة فالمحبة هي الحرية الوحيدة في هذا العالم لانهــا ترفع النفس الى مقامٍ سامٍ لا تبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ولا تسود عليه نواميس الطبيعة واحكامها

ولما وقفت للانصراف اقترب مني فارس كرامه وقال بصوت تعانقه رنة الاخلاص « الآن وقد عرفت الطريق

الى هذا المنزل يجب ان تأْتي اليه شاعراً بالثقة التي تقودك الى بيت ابيك وان تحتسبني وسلمى كوالدٍ واختٍ لك — أَليس كذلك يا سلمى ؟ »

فاحنت سلمى رأْسها ايجاباً ثم نظرت اليَّ نظرة غريب ضائع وجد رفيقاً يعرفه

ان تلك الكلمات التي قالها لي فارس كرامه هي النغمة الاولى التي اوقفتني بجانب ابنتـه امام عرش المحبة · هي استهلال الاغنية السماوية التي انتهب بالندب والرثاء — هي القوة التي شجعت روحينا فاقتربنا من النور والنار · هي الأَناء الذي شربنا فيه الكوثر والعلقم

وخرجتُ فشيعني الشيخ الى اطراف الحديقة فودعتهما وقلبي يخفق في داخلي مثلما ترتعش شفتا العطشان بملامسة حافة الكأس



٥

الشعلة البيضاء

The White Flame

وانقضى نيسان وانا ازور منزل فارس كرامه والتقي بسلمى واجلس قبالها في تلك الحديقة متأملاً محاسنها، معجباً بمواهبها، مصغياً لسكينة كآبتها شاعراً بوجود ايادٍ خفية تجتذبني اليها · فكل زيارة كانت تبين لي معنىً جديداً من معاني جمالها وسرًّا علويًا من اسرار روحها، حتى اصبحت امام عينيَّ كتاباً اقرأُ سطوره واستظهر آياته واترنم بنغمته ولا استطيع الوصول الى نهايته

ان المرأَة التي تمنحها الالهة جمال النفس مشفوعاً بجمال الجسد هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالمحبة ونلمسها بالطهر وعندما نحاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس · وسلمى كرامه كانت جميلة النفس والجسد

فكيف اصفها لمن لا يعرفها ؟ هل يستطيع الجالس في ظل اجنحة الموت ان يستحضر تغريدة البلبل وهمس الوردة وتنهدة الغدير ؟ أَيقدر الأَسير المثقل بالقيود ان يلاحق هبوب نسمات الفجر ؟ ولكن أَليس السكوت اصعب من الكلام ؟ وهل يمنعني التهيب عن اظهار خيالٍ من خيالات سلمى بالالفاظ الواهية اذا كنتُ لا استطيع ان ارسم حقيقتها بخطوط من الذهب ؟ ان الجائع السائر في الصحراء لا يأْبى أَكل الخبز اليابس اذا كانت السماء لا تمطره المنّ والسلوى

كانت سلمى نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريرية كاشعة قمر دخلت من النافذة · وكانت حركاتها بطيئة متوازنة اشبه شيءٍ بمقاطيع الالحان الاصفهانية · وصوتها منخفضاً حلواً تقطعه التنهدات فينسكب من بين شفتيها القرمزتيين مثلما تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور تموجات الهواء · ووجهها — ومن يا ترى

يستطيع ان يصف وجه سلمى كرامه ؟ بأَية الفاظٍ نقدر ان نصوّر وجهاً حزيناً هادئاً محجوبًا وليس محجوباً بنقاب من الاصفرار الشفاف؟ بأَية لغة نقدر ان نتكلم عن ملامح تعلن في كل دقيقة سرًّا من اسرار النفس الكبيرة المتأَلمة في داخل الجسد وتذكّر الناظرين اليها بعالم روحيٍ بعيد عن هذا العالم ؟ ان الجمال في وجه سلمى لم يكن منطبقاً عَلَى المقاييس التي وضعها البشر للجمال ، بل كان غريباً كالحلم او كالرؤيا او كفكر علويٍ لا يقاس ولا يُحدّ ولا يُنسخ بريشة المصوّر ولا يتجسم برخام الحفار · جمال سلمى لم يكن في شعرها الذهبي بل في هالة الطهر المحيطة به · ولم يكن في عينيها الكبيرتين بل في النور المنبعث منهما · ولا في شفتيها الورديتين بل في الحلاوة السائلة عليهما · ولا في عنقها العاجي بل في كيفية انحنائه قليلاً الى الامام · جمال سلمى لم يكن في كمال جسدها بل في نبالة روحها الشبيهة بشعلة

بيضاء متقدة سابحة بين الارض واللانهاية. جمال سلمى كان نوعاً من ذاك النبوغ الشعري الذي نشاهد اشباحه في القصائد السامية والرسوم والانغام الخالدة. واصحاب النبوغ تعساء مهما تسامت ارواحهم تظل مكتنفةً بغلاف من الدموع

وكانت سلمى كثيرة التفكير قليلة الكلام ، لكن سكوتها كان موسيقياً ينتقل بجليسها الى مسارح الاحلام البعيدة ويجعله ان يصغى لنبضات قلبه ويرى خيالات افكاره وعواطفه منتصبةً امام عينيه

اما الصفة التي كانت تعانق مزايا سلمى وتساور اخلاقها فهي الكآبة العميقة الجارحة ، فالكآبة كانت وشاحاً معنوياً ترتديه فتزيد محاسن جسدها هيبةً وغرابةً وتظهر اشعة نفسها من خلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء ضباب الصباح

وقد اوجدت الكآبة بين روحي وروح سلمى صلة المشابهة فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه ، ويسمع بصوته صدى مخبآت صدره ، فكأن الالهة قد جعلت كل واحد منا نصفاً للآخر يلتصق به بالطهر فيصير انساناً كاملاً ، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجع في روحه

ان النفس الحزينة المتألمة تجد راحةً بانضمامها الى نفس اخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالاحساس مثلما يستأنس الغريب بالغريب في ارض بعيدة عن وطنيهما - فالقلوب التي تدنيها اوجاع الكآبة بعضها من بعض لا تفرقها بهجة الافراح وبهرجتها فرابطة الحزن اقوى في النفوس من روابط الغبطة والسرور · والحب الذي تغسله العيون بدموعها يظل طاهراً وجميلاً وخالداً

The Tempest

٦

العاصفة

وبعد ايام دعاني فارس كرامه الى مناولة العشاء في منزله فذهبت ونفسي جائعة الى ذلك الخبز العلوي الذي وضعته السماء بين يدي سلمى · — ذلك الخبز الروحي الذي نلتهمه بافواه افئدتنا فنزداد جوعاً — ذلك الخبز السحري الذي ذاق طعمه قيس العربي ودانتي الطلياني وسافو اليونانية فالتهبت احشاؤُهم وذابت قلوبهم — ذلك الخبز الذي عجنته الالهة بحلاوة القبل ومرارة الدموع واعدته ماكلاً للنفوس الحساسة المستيقظة لتفرحها بطعمه وتعذبها بتأْثيره

ولما بلغتُ المنزل وجدت سلمى جالسةً على مقعد خشبي في زاوية من الحديقة وقد اسندت رأْسها الى عمد

شجرة فبانت بثوبها الابيض كواحدة من عرائس الخيال تخفر ذلك المكان · فدنوت منها صامتاً وجلست بقربها جلوس مجوسي متهيب امام النار المقدسة · ولما حاولت الكلام وجدت لساني منعقداً وشفتيّ جامدتين فاستأنستُ بالسكوت لان الشعور العميق غير المتناهي يفقد شيئاً من خاصته المعنوية عندما يتجسم بالالفاظ المحدودة · ولكنني شعرتُ بان سلمى كانت تسمع في السكينة مناجاة قلبي المتواصلة وتشاهد في عينيَّ اشباح نفسي المرتعشة

وبعد هنيهة خرج فارس كرامه الى الحديقة ومشى نحونا مرحباً بي كعادته باسطاً يده اليّ كأنه يريد ان يبارك بها ذلك السر الخفي الذي يربط روحي بروح ابنته ثم قال مبتسماً « هلما يا ولديّ الى العشاء فالطعام ينتظرنا » فقمنا وتبعناه وسلمى تنظر اليّ من وراء اجفان مكحولة بالرقة والانعطاف كأن لفظة « ياولديّ » قد ايقظت في

داخلها شعوراً جديداً عذباً يكتنف محبتها لي مثلما تحتضن الام طفلها

جلسنا الى المائدة نأكل ونشرب ونتحدث — جلسنا في تلك الغرفة نتلذذ بالوان الطعام الشهية وانواع الخمور المعتقة وارواحنا تسبح عَلَى غير معرفة منا في عالم بعيد عن هذا العالم وتحلم بما ياتي في المستقبل وتتأهب للوقوف امام مخاوفه واهواله · ثلاثة اشخاص تختلف افكارهم باختلاف مقاصدهم من الحياة وتتفق سرائرهم باتفاق قلوبهم بالمودة والمحبة · ثلاثة من الضعفاء الابرياء يشعرون كثيراً ويعرفون قليلاً وهذه هي المأساة المستتبة عَلَى مرسح النفس · شيخ جليل شريف يحب ابنته ولا يحفل بغير سعادتها - وصبية في العشرين من عمرها ترى المستقبل قريباً بعيداً وتحدق به لترى ما يخبئ لها من الغبطة والشقاء — وفتىً كثير الاحلام والهواجس لم يذق بعد خمر الحياة ولا خلها يحرّك

جناحيه ليطير سابحاً في فضاء المحبة والمعرفة ولكنه لا يستطيع النهوض لضعفه· ثلاثة جالسون حول مائدة انيقة في منزل منفرد عن المدينة تخيم عليه سكينة الدجى وتحدق به عيون السماء · ثلاثة ياكلون ويشربون وفي اعماق صحونهم وكؤوسهم قد اخفى القدر المرارة والاشواك

ولم ننتهِ من العشاء حتى دخلت علينا احدى الخادمات وخاطبت فارس كرامه قائلةً « في الباب رجل يطلب مقابلتك يا سيدي »

فسألها بسرعة « من هو هذا الرجل » فاجابت « اظنه خادم المطران يا سيدي » · فسكت دقيقة واحدق بعيني ابنته نظير نبي ينظر الى وجه السماء ليرى ما تخبئهُ من الاسرار ثم التفت نحو الخادمة وقال « دعيه يدخل »

فعادت الخادمة وبعد هنيهـــة ظهر رجل باثواب مزركشة وشارب معكوف الطرفين فسلم منحنياً وخاطب

فارس كرامه قائلاً « قد بعثني سيادة المطران بمركبته الخصوصية لاطلب اليك ان تتكرم بالذهاب اليه فهو يريد ان يباحثك بأُمور ذات اهمية »

فانتصب الشيخ وقد تغيرت ملامحه وانحجبت بشاشة وجهه وراء نقاب من التأمل والتفكير ثم اقترب مني وقال بصوت تساوره الرقة والحلاوة « ارجو ان اعود والقاك ههنا ، فسلمى ستجد بك مؤنساً يبعد باحاديثه وحشة الليل ، ويزيل بانغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد » ثم التفت نحو ابنته وزاد مبتسماً « أليس كذلك يا سلمى ؟ »

فاحنت الصبية رأسها وقد توردت وجنتاها قليلاً وبصوت يضارع نغمة الناي رقةً قالت « سوف اجهد النفس لكي اجعل ضيفنا مسروراً يا والدي »

وخرج الشيخ مصحوباً بخادم المطران وظلت سلمى واقفةً تنظر من النافذة نحو الطريق حتى اختفت المركبة

عن بصرها وراء ستائر الظلام واضمحل ارتجاج الدواليب بتباعد المسافة وتشرب السكون حرتقة سنابك الخيل · ثم جلست قبالتي عَلَى مقعد موشى بنسيج من الحرير الاخضر فبانت باثوابها الناصعة كزنبقة لوت قامتها نسمات الصباح عَلَى بساط من الاعشاب

كذا شاءَت السماء نخلوت بسلمى ليلاً في منزل منفرد تخفره الاشجار وتغمره السكينة وتسير في جوانبه خيالات الحب والطهر والجمال

ومرت دقائق وكلانا صامت حائر مفتكر يترقب الآخر ليبدأ بالكلام · ولكن هل هو الكلام الذي يحدث التفاهم بين الارواح المتحابة ؟ هل هي الاصوات والمقاطيع الخارجة من الشفاه والالسنة التي تقرب بين القلوب والعقول ؟ أفلا يوجد شيءٌ اسمى مما تلده الافواه واطهر مما تهتز به اوتار الحناجر ؟ أَليست هي السكينة التي تحمل

شعاع النفس الى النفس وتنقل همس القلب الى القلب؟ أليست هي السكينة التي تفصلنا عن ذواتنا فنسبح في فضاء الروح غير المحدود مقتربين من الملاء الاعلى شاعرين بان اجسادنا لا تفوق السجون الضيقة وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد؟

ونظرت سلمى اليّ وقد باحت اجفانها بسرائر نفسها ثم قالت بهدوء سحريٍ «تعال نخرج الى الحديقة ونجلس بين الاشجار لنرى القمر طالعاً من وراء الجبل»

فوقفت مطيعاً وقلت ممانعاً «أليس الافضل ان نبقى ههنا يا سلمى حتى يطلع القمر وينير الحديقة؟ اما الان فالظلام يحجب الاشجار والازهار فلا نستطيع ان نرى شيئاً» فاجابت «اذا حجب الظلام الاشجار والرياحين عن العين فالظلام لا يحجب الحب عن النفس»

قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة ثم حولت عينيها

ونظرت نحو النافذة فبقيت انا صامتاً مفكراً بكلماتها مصوراً لكل مقطع معنىً راسماً لكل معنىً حقيقــة · ثم عادت واحدقت بي كانها ندمت عَلَى ما قالت فحاولت استرجاع كلماتها من اذنيَّ بسحر اجفانها · ولكن سحر تلك الاجفان لم يسترجع تلك الالفاظ الاَّ ليعيدها الى اعماق صدري اكثر وضوحاً واشد تأثيراً وليبقيها هناك ملتصقهً بقلبي متموجةً مع عواطفي الى آخر الحياة

كل شيءٍ عظيم وجميل في هذا العالم يتولد من فكر واحد او من حاسة واحدة في داخل الانسان · كل ما نراه اليوم من اعمال الاجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكراً خفياً في عاقلة رجل او عاطفة لطيفــة في صدر امرأة · · الثورات الهائلة التي اجرت الدماء كالسواقي وجعلت الحرّية تعبد كالالهة كانت فكراً خيالياً مرتعشاً بين تلافيف دماغ رجل فرد عائش بين الوف من الرجال · الحروب الموجعة

التي ثلت العروش وخربت الممالك كانت خاطراً يتمايل في رأس رجل واحد· التعاليم السامية التي غيرت مسير الحياة البشرية كانت ميلاً شعرياً في نفس رجلٍ واحدٍ منفصلٍ بنبوغه عن محيطه· فكرٌ واحد اقام الاهرام وعاطفة واحدة خربت تروادة وخاطر واحد اوجد مجد الاسلام وكلمة واحدة احرقت مكتبة الاسكندرية

فكر واحد يجيئك في سكينة الليل ويسير بك الى المجد او الى الجنون · نظرة واحدة من اطراف اجفان امرأة تجعلك اسعد الناس او اتعسهم · كلمة واحدة تخرج من بين شفتي رجل تصيّرك غنياً بعد الفقر او فقيراً بعد الغنى·· كلمة واحدة لفظتها سلمى كرامه في تلك الليلة الهادئة اوقفتني بين ماضيّ ومستقبلي وقوف سفينة بين لجة البحار وطبقات الفضاء· كلمة واحدة معنوية قد ايقظتني من سبات الحداثة والخلو وسارت بايامي عَلَى طريقٍ جديدة الى مسارح

الحب حيث الحياة والموت

خرجنا الى الحديقة وسرنا بين الاشجار شاعرين باصابع النسيم الخفية تلامس وجهينا وقامات الازهار والاعشاب اللدنة تمايل بين اقدامنا ، حتى اذا ما بلغنـا شجرة الياسمين جلسنا صامتين عَلَى ذلك المقعد الخشبي نسمع تنفس الطبيعة النائمة ونكشف بحلاوة التنهد خفايا صدرينا امام عيون السماء الناظرة الينا من وراء ازرقاق السماء

وطلع القمر اذ ذاك من وراء صنين وغمر بنوره تلك الروابي والشواطئ فظهرت القرى عَلَى اكتاف الاودية كأنها قد انبثقت من اللاشيء . وبان لبنان جميعه من تحت تلك الاشعة الفضيـة كأنه فتى متكئ عَلَى ساعده تحت نقاب لطيف يخفي اعضاءه ولا يخفيها

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالي قد اضمحلت حقيقته بذهاب داود وسليمان والانبياء مثلما انحجبت جنة

عدن بسقوط آدم وحواء · هو لفظة شعرية لا اسم لجبل — لفظة ترمز عن عاطفة في النفس وتستحضر الى الفكر رسو غاباتٍ من الارز يفوح منها العطر والبخور ، وابراج من النحاس والرخام تتعالى بالمجد والعظمة ، واسراب من الغزلان تتهادى بين الطلول والاودية · وانا قد رأيت لبنان في تلك الليلة مثل فكر شعري خيالي منتصب كالحلم بين اليقظة واليقظة

كذا تتغير الاشياء امام اعيننا بتغيير عواطفنا ، وهكذا نتوهم الاشياء متشحةً بالسحر والجمال عندما لا يكون السحر والجمال الاَّ في نفوسنا

والتفتت اليَّ سلمى وقد غمر نور القمر وجهها وعنقها ومعصميها فبانت كتمثال من العاج نحتته اصابع متعبد لعشتروت ربة الحسن والمحبة « لماذا لا تتكلم — لماذا لا تحدثني عن ماضي حياتك ؟ »

فنظرتُ الى عينيهـا المنيرتين ومثل اخرس فاجأَ النطقُ شفتيه اجبتها قائلاً «أَلم تسمعيني متكلماً مذ جئت الى هذا المكان — أَو لم تسمعي كل ما قلته مذ خرجنا الى هذه الحديقة ؟ ان نفسكِ التي تسمع همس الازهار واغاني السكينة تستطيع ان تسمع صراخ روحي وضجيج قلبي »

فحجبت وجهها بيديها ثم قالت بصوت متقطعٍ « قد سمعتك .. نعم سمعتك .. سمعت صوتاً صارخاً خارجاً من احشاء الليل وضجةً هائلةً منبثقة من قلب النهار »

فقلتُ بسرعة وقد نسيت ماضي حياتي ونسيت كياني ونسيت كل شيء ولم اعد اعرف سوى سلمى ولا اشعر بغير وجودها « وانا قد سمعتكِ يا سلمى — سمعت نغمة عظيمة محيية جارحة تتموج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها اسس الارض »

فاغمضت سلمى اجفانها وظهر عَلَى شفتيها القرمزيتين

خيال ابتسامة محزنة ثم همست قائلةً « قد عرفتُ الآن بانهُ يوجد شيء اعلى من السماء واعمق من البحر واقوى من الحياة والموت والزمن · قد عرفت الآن ما لم اكن اعرفه بالامس ولا احلم بهِ »

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامه اعزّ من صديق واقرب من الاخت واحب من الحبيبة · صارت فكراً سامياً يتبع عاقلتي وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وحلماً جميلاً يجاور نفسي

ما اجهل الناس الذين يتوهمون ان المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة · ان المحبة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي وان لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم بعام ولا بجيل كامل

ورفعت سلمى رأسها ونظرت نحو الافق البعيد حيث تلتقي خطوط صنين باذيال الفضاء ثم قالت « لقد كنتَ

لي بالامس مثل اخٍ اقترب منهُ مطمئنةً واجلس بجانبه في ظلال والدي. اما الان فقد شعرتُ بوجود شيءٍ اقوى واعذب من العلاقة الاخوية . قد شعرت بعاطفة غريبة مجردة عن كل علاقة . عاطفة قوية عميقة مخيفة لذيذة تملأُ قلبي حزناً وفرحاً »

فاجبتها « أَليست هذه العاطفة التي نخافها ونرتجف لمرورها في صدورنا جزءًا من الناموس الكلي الذي يسيّر القمر حول الارض والارض حول الشمس والشمس وما يحيط بها حول الله ؟ »

فوضعت يدها عَلَى رأْسي وغرست اصابعها بشعري وقد تهلل وجهها وترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلمع قطرات الندي عَلَى اطراف اوراق النرجس ثم قالت « مَن من البشر يصدق حكايتنا — مَن منهم يصدق باننا في الساعة التي تجيء بين غروب الشمس وطلوع القمر قد قطعنا

العقبات واجتزنا المعابر الكائنة بين الشك واليقين. مَن منهم يعتقد بان نيسان الذي جمعنا لاول مرة هو الشهر الذي اوقفنا في قدس اقداس الحياة؟ »

قالت هذه الكلمات ويدها ما برحت عَلَى رأسي المنحني ولو تخيرتُ في تلك الدقيقة لما فضلتُ تيجان الملوك واكاليل الغار عَلَى تلك اليد الحريرية المتلاعبة بشعري - ثم اجبتها قائلاً « ان البشر لا يصدقون حكايتنا لانهم لا يعلمون بان المحبة هي الزهرة الوحيدة التي تنبت وتنمو بغير معاونة الفصول. ولكن هل هو نيسان الذي جمعنا لاول مرة وهل هي هذه الساعة التي اوقفتنا في قدس اقداس الحياة؟ اما جمعت روحينا قبضةُ الله قبل ان تصيرنا الولادة اسيري الايام والليالي؟ ان حياة الانسان يا سلمى لا تبتدئ في الرحم كما انها لا تنتهي امام القبر وهذا الفضاء الوسيع المملو باشعة القمر والكواكب لا يخلو من الارواح المتعانقة بالمحبة والنفوس

المتضامة بالتفاهم »

ورفعت سلمى يدها بلطف عن رأسي تاركةً بين مغارس الشعر تموجاتٍ كهربائية يتلاعب بها نسيم الليل فيزيدها نموًّا وحراكاً . فأَخذتُ تلك اليد براحتيَّ ونظير متعبد يتبرك بلثم المذبح وضعتها عَلَى شفتيَّ الملتهبتين وقبلتها قبلة طويلة عميقة خرساء تذيب بحرارتها كل ما في القلب البشري من الاحساس وتنبه بعذوبتها كل ما في النفس الالهية من الطهر

ومرت علينا ساعة كل دقيقة منها عام شغف ومحبة تساورنا سكينة الليل وتغمرنا اشعة القمر وتحيط بنا الاشجار والرياحين حتى اذا ما بلغنا تلك الحالة التي ينسى فيها الانسان كل شيء سوى حقيقة الحب سمعنا وقع حوافر وهدير مركبة تقترب منا مسرعةً فانتبهنا من تلك الغيبوبة اللذيذة وهبطت بنا اليقظةُ من عالم الاحلام الى هذا العالم الواقف

بمسيره بين الحيرة والشقاء فعرفنا بان الوالد الشيخ قد عاد من دار المطران فنهضنا وسرنا بين الاشجار ننتظر وصوله

وبلغت المركبة مدخل الحديقة فترجل فارس كرامه وسار نحونا منحني الرأس بطيءُ الحركة ونظير متعب رازح تحت حملٍ ثقيلٍ تقدم نحو سلمى ووضع كلتا يديه عَلَى كتفيها واحدق بوجهها طويلاً كأنهُ يخاف ان تغيب صورتها عن عينيه الضئيلتين. ثم انسكبت دموعه عَلَى وجنتيه المتجعدتين وارتجفت شفتاه بابتسامة محزنة وقال بصوت مخنوق «عما قريب يا سلمى - عما قريب تخرجين من بين ذراعي والدكِ الى ذراعي رجل آخر - عما قريب تسير بكِ سنة الله من هذا المنزل المنفرد الى ساحة العالم الوسيعة فتصبح هذه الحديقة مشتاقةً الى وطء قدميكِ ويصير والدكِ غريباً عنكِ لقد لفظ القدر كلمتــه يا سلمى فلتباركِكِ السماء وتحرسكِ»

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيرت ملامحها وجمدت عيناها كأنها رأت شبح الموت منتصباً امامها · ثم شهقت وتململت متوجعةً كعصفور رماه الصيـاد فهبط عَلَى الحضيض مرتجفاً بآلامه – وبصوت تقطعـه الغصات العميقة صرخت قائلةً « ماذا تقول ؟ ماذا تعني ؟ الى اين تريد ان تبعث بي ؟ »

ثم شخصت بهِ كأنها تريد ان تزيل بنظراتها الغلاف عن مخبآت صدره · وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون الشبيه بصراخ القبور قالت متأوهةً « قد فهمت الان ·· قد عرفت كل شيء ·· ان المطران قد فرغ من حبك قضبان القفص الذي اعده لهذا الطائر المكسور الجناحين فهل هذه هي ارادتك يا والدي ؟ »

فلم يجبها بغير التنهدات العميقة ثم ادخلها الدار واشعة الحنو تنسكب من ملامحه المضطربة فبقيت انا واقفاً بين

ألاشجار والحيرة تتلاعب بعواطفي مثلما تتلاعب العواصف باوراق الخريف · ثم اتبعتهما الى القاعة — وكيلا اظهر بمظهر طفيلي يميل الى استطلاع الخصوصيات اخذتُ يدَ الشيخ مودعاً ونظرت الى سلمى نظرة غريقٍ تلفٍ نحو نجمٍ لامعٍ في قبة الفلك · ثم خرجتُ دون ان يشعرا بخروجي ولكنني ما بلغتُ اطراف الحديقة حتى سمعتُ صوت الشيخ منادياً فالتفتُ واذا بهِ يتبعني فعدت الى لقائه ولما دنوت منهُ امسك بيدي وقال بصوت مرتعشٍ « سامحني يا ابني فقد جعلت ختام ليلتك مكتنفاً بالدموعِ — ولكنك سوف تجيءُ اليَّ دائماً — أَليس كذلك ؟ أَلا تزورني عندما يصير هذا المكان خالياً الاَّ من الشيخوخة المحزنة ؟ ان الشباب الغض لا يستأْنس بالشيخوخة الذابلة كما ان الصباح لا يلتقي بالمساء - اما انت فسوف تجيءُ اليَّ لتذكرني بايام الصبا التي صرفتها بقرب ابيك وتعيد عليَّ

مسمعي اخبار الحياة التي لم تعد تحسبني من ابنائها٠٠ أليس كذلك ؟ ألا تزورني عند ما تذهب سلمى واصبح وحيداً منفرداً في هذا المنزل البعيد عن المنازل ؟ »

لفظ الكلمات الاخيرة بصوت منخفض متقطع ولما أخذتُ يده وهززتها صامتاً احسستُ بقطرات من الدموع السخينة قد تساقطت عَلَى يدي من اجفانه فارتعشتْ نفسي في داخلي وشعرت نحوه بعاطفة بنوية عذبة محزنة تتمايل بين ضلوعي وتتصاعد كاللهات الى شفتيّ ثم تعود كالغصات الى اعماق قلبي — ولما رفعت رأسي ورأى ان دموعه قد استدرت الدموع من اجفاني انحنى قليلاً ولمس بشفتيه المرتجفتين اعالي جبهتي ثم قال محولاً وجهه نحو باب المنزل « مساء الخير ٠٠٠ مساء الخير يا ابني »

ان دمعة واحدة تتلمع عَلَى وجنة شيخ متجعدة لهي اشد تأثيراً في النفس من كل ما تهرقه اجفان الفتيان

ان دموع الشباب الغزيرة هي مما يفيض من جوانب القلوب المترعة. اما دموع الشيوخ فهي فضـلات العمر تنسكب من الاحداق . هي بقية الحياة في الاجساد الواهنة الدموع في اجفان الشبيبة كقطرات الندى عَلَى اوراق الوردة اما الدموع عَلى وجنة الشيخوخة فاشبه باوراق الخريف المصفرّة التي تنثرها الارياح وتذريها عندما يقترب شتاء الحياة

واختفى فارس كرامه وراء مصارع الباب وخرجت انا من تلك الحديقة وصوت سلمى يتموج في اذنيّ وجمالها يسير كالخيال امام عينيّ ودموع والدها تجف ببطء عَلَى يدي . خرجت من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس ولكن حواء هذا القلب لم تكن بجانبي لتجعل العالم كله فردوساً.. خرجتُ شاعراً بان تلك الليلة التي ولدتُ فيها ثانيةً هي الليلة التي لمحتُ فيها وجه الموت لاول مرّة

كذا تحيي الشمس الحقول بحرارتها وبحرارتها تميتها

٧

بحيرة النار

The lake of Fire

كل ما يفعله الانسان سرًّا في ظلمة الليل يظهره الانسان علناً في نور النهار. الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير علَى غير معرفة منا حديثاً عمومياً. الاعمال التي نحاول اليوم اخفاءها في زوايا المنازل تتجسم غداً وتنتصب في منعطفات الشوارع

كذا اعلنت اشباح الدجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامه، وهكذا حملت دقائق الاثير اقواله واحاديثه الى احياء المدينة حتى بلغت مسمعيّ

ما طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامه في تلك الليلة المقمرة ليفاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين او

يخابره بأُمور الارامل والايتام بل احضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن اخيه منصور بك غالب

كان فارس كرامه رجلاً غنياً ولم يكن له وريث سوى ابنته سلمى وقد اختارها المطران زوجةً لابن اخيه لا لجمال وجهها ونبالة روحها بل لانها غنية موسرة تكفل باموالها الطائلة مستقبل منصور بك وتساعده باملاكها الوسيعة عَلَى ايجاد مقام رفيع بين الخاصة والاشراف

ان روَساء الدين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه نفوسهم من المجد والسوُدد بل يفعلون كل ما في وسعهم ليجعلوا انسباءَهم في مقدمة الشعب ومن المستبدين به والمستدرين قواه وامواله · ان مجد الامير ينتقل بالارث الى ابنه البكر بعد موته اما مجد الرئيس الديني فينتقل بالعدوى الى الاخوة وابناء الاخوة في حياته · وهكذا يصبح الاسقف

المسيحي والامام المسلم والكاهن البرهمي كافاعي البحر التي تقبض عَلَى الفريسة بمقابض كثيرة وتمتص دماءها بافواه عديدة

عندما طلب المطران بولس يد سلمى من والدها لم يجبهُ ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخينة واي والد لا يشقّ عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة الى بيت جاره او الى قصر ملك · اي رجل لا ترتعش اعماق نفسه بالغصات عندما يفصله ناموس الطبيعة عن الابنة التي لاعبها طفلة وهذبها صبيةً ورافقها امرأةً · ان كآبة الوالدين لزواج الابنة يضارع فرحهم بزواج الابن لان هذا يكسب العائلة عضواً جديداً اما ذاك فيسلبها عضواً قديماً عزيزاً

اجاب الشيخُ طلبَ المطران مضطرًّا وانحنى امام مشيئته قهراً عما في داخل نفسه من الممانعة · وكان قد اجتمع بابن اخيه منصور بك وسمع الناس يتحدثون عنهُ فعرف

خشونته وطمعه وانحطاط اخلاقه ، ولكن اي مسيحي يقدر ان يقاوم اسقفاً في سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين ؟ اي رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويظل كريماً بين الناس ؟ أَ تعاند العين سهماً ولا تُفقر او تناضل اليدُ سيفاً ولا تُقطع ؟ وهب ان ذلك الشيخ كان قادراً عَلَى مخالفة المطران بولس والوقوف امام مطامعه فهل تكون سمعة ابنته في مأمن من الظنون والتآويل ، وهل يظل اسمها نقياً من اوساخ الشفاه والالسنة ؟ أَو ليست جميع العناقيد العالية حامضة في شرع بنات آوي ؟

هكذا قبض القدر عَلَى سلمى وقادها عبدةً ذليلةً في موكب النساء الشرقيات التاعسات . وهكذا سقطت تلك الروح النبيلة بالحبائل بينما كانت تسبح لاول مرة عَلَى اجنحة الحب البيضاء في فضاء تملأه اشعة القمر وتعطره رائحة الازاهر

ان اموال الاباء تكون في اكثر المواطن مجلبةً لشقاء البنين · تلك الخزائن الوسيعة التي يملأُها نشاط الوالد وحرص الأم تنقلب حبوساً ضيقة مظلمة لنفوس الورثة · ذلك الاله العظيم الذي يعبده الناس بشكل الدينار ينقلب شيطاناً مخيفاً يعذب النفوس ويميت القلوب · وسلمى كرامه هي كالكثيرات من بنات جنسها اللواتي يذهبنَ ضحية ثروة الوالد واماني العريس · فلو لم يكن فارس كرامه رجلاً غنياً لكانت سلمى اليوم حية تفرح مثلنا بنور الشمس

مرَّ اسبوع وحب سلمى يجالسني في المساء منشداً على مسمعي اغاني السعادة وينبهني عند الفجر ليريني معاني الحياة واسرار الكيان · حبٌّ علويٌّ لا يعرف الحسد لانه غنيٌّ ولا يوجع الجسد لانهُ في داخل الروح · ميلٌ قويٌّ يغمر النفس بالقناعة · مجاعة عميقة تملأُ القلب بالاكتفاء · عاطفة تولد الشوق ولكنها لا تثيره · فتون جعلني ارى الارض

نعيماً والعمر حلماً جميلاً . فكنت اسير صباحاً في الحقول وأرى في يقظة الطبيعة رمز الخلود . واجلس عَلَى شاطئ البحر واسمع من امواجه اغاني الابدية وامشي في شوارع المدينة واجد في طلعات العابرين وحركات المشتغلين محاسن الحياة وبهجة العمران

تلك ايام مضت كالاشباح واضمحلت كالضباب ولم يبقَ لي منها سوى الذكرى الاليمة — فالعين التي كنت ارى بها جمال الربيع ويقظة الحقول لم تعد تحدق بغير غضب العواصف ويأس الشتاء . والأذن التي كنت اسمع بها اغنية الامواج لم تعد تصغي لغير أَنة الاعماق وعويل الهاوية . والنفس التي كانت تقف متهيبةً امام نشاط البشر ومجد العمران لم تعد تشعر بغير شقاء الفقراء وتعاسة الساقطين . فما احلى ايام الحب وما اعذب احلامها . وما امرّ ليالي الحزن وما اكثر مخاوفها

وفي نهاية الاسبوع وقد سكرت نفسي بخمرة عواطفي سرتُ مساءً الى منزل سلمى كرامه — ذلك الهيكل الذي اقامهُ الجمال وقدسهُ الحب لتسجد فيه النفس مصليةً ويركع القلب خاشعاً – ولما بلغتهُ ودخلتُ الى تلك الحديقة الهادئة احسستُ بوجود قوة تستهويني وتستميلني وتبعدني عن هذا العالم وتدنيني ببطءٍ الى عالم سحري خالٍ من العراك والجهاد· ومثل متصوّف جذبتهُ السماءُ الى مسارح الرؤْيا وجدتني سائراً بين تلك الاشجار المحتبكة والزهور المتعانقة · حتى اذا ما اقتربتُ من باب الدار التفت واذا بسلمى جالسة عَلَى ذلك المقعد بظلال شجرة الياسمين حيث جلسنا منذ اسبوع في تلك الليلة التي اختارتها الالهة من بين الليالي وجعلتها بدءَ سعادتي وشقائي — فدنوت منها صامتاً فلم تحترك ولم تتكلم كأَنها علمت بقدومي قبل قدومي · ولما جلست بجانبها احدقت ْبعينيّ دقيقةً وتنهدت تنهدة طويلة

عميقة ثم عادت ونظرت الى الشفق البعيد حيث تعبث اوائل الليل باواخر النهار. وبعد هنيهة مملوءَة بتلك السكينة السحرية التي تضم نفوسنا الى مواكب الارواح غير المنظورة ، حولتْ سلمى وجهها نحوي واخذت يدي بيدٍ مرتعشة باردة ، وبصوتٍ يشابه تأَوه جائع لا يقوى علَى الكلام قالت « انظر الى وجهي يا صديقي. انظر الى وجهي جيداً وتأَمله طويلاً واقرأ فيه كل ما تريد ان تفهمهُ مني بالكلام... انظر الى وجهي يا حبيبي.. انظر جيداً يا أَخي.. »

فنظرتُ الى وجهها — نظرتُ طويلاً فرأَيتُ تلك الاجفان التي كانت منذ ايام قليلة تبتسم كالشفاه وتحترك كأَجنحة الشحرور قد غارت وجمدت واكتحلت بخيلات التوجع والأَلم. رأَيت تلك البشرة التي كانت بالامس مثل ثنايا الزنبقة البيضاءَ الفارحة بقبلات الشمس قد اصفرت

وذبلت وتبرقعت بنقاب القنوط · رأَيت الشفتين اللتين كانتا كزهرة اقاح تسيل عليهما الحلاوة قد يبستا وصارتا كوردتين مرتجفتين ابقاهما الخريف عَلَى طرف الغصن · رأَيت العنق الذي كان مرفوعاً كعمود العاج قد انحنى الى الامام كأَنه لم يعد قادراً عَلَى حمل ما يجول في تلافيف الرأْس

رأَيت هذه الانقلابات الموجعة في ملامح سلمى — رأَيتها جميعها ولكنها لم تكن في نظري الاَّ كسحابة رقيقة توشح القمر فتزيد منظره حسناً وهيبةً · ان الملامح التي تبيح اسرار الذات المعنوية تكسب الوجه جمالاً وملاحةً مهما كانت تلك الاسرار موجعة وأَليمة · اما الوجوه التي لا تتكلم بصمتها عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون جميلة مهما كانت متناسقة الخطوط متناسبة الاعضاء · ان الكؤُوس لا تستميل شفاهنا حتى يشف بلورها عن لون

الخمر. فسلمى كرامه كانت في عشية ذلك النهار مثل كأْس طافحة من خمرة علوية تمتزج بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النفس — كانت تمثل عَلَى غير معرفة منهـا حياة المرأَة الشرقية التي لا تغادر منزل والدها المحبوب الاَّ لتضع عنقها تحت نير زوجها الخشن ، ولا تترك ذراعي امها الرؤُوف الاَّ لتعيش في عبودية والدة زوجها القاسية

وبقيتُ محدقاً بوجه سلمى مصغياً لانفاسها المتقطعـة صامتاً مفكراً شاعراً متألّماً معها ولها حتى احسستُ ان الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحل ولم اعد ارى سوى عينين كبيرتين محدقتين باعماقي ، ولا اشعر بغير يدٍ باردة مرتعشة تضم يدي ، ولم افق من هذه الغيبوبة حتى سمعتُ سلمى تقول بهدوءٍ « تعالَ نتحدث الآن يا صديقي . تعال نحاول تصوير المستقبل قبل ان يحمل علينا بمخاوفه واهواله . لقد ذهب والدي الى منزل الرجل الذي

سيكون رفيقاً لي حتى القبر – قد ذهب الرجل الذي اختارته السماء سبباً لوجودي ليلتقي بالرجل الذي انتقته الارض سيداً عَلَى ايامي الآتية ، ففي قلب هذه المدينة يجتمع الان الشيخ الذي رافق شبيبتي بالشاب الذي سيرافق ما بقي لي من السنين ، وفي هذه الليلة يتفق الوالد والخطيب عَلَى يوم القران الذي سيكون قريباً مهما جعلاه بعيداً ، فما اغرب هذه الساعة وما اشد تأْثيرها ... في مثل هذه الليلة من الاسبوع الغابر ، وفي ظلال هذه الياسمينة قد عانق الحبُ روحي لأول مرةٍ بينما كان القدر يخط اول كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب . وفي هذه الساعة وقد جلس والدي وخطيبي ليضفرا اكليل زواجي اراك جالساً بجانبي واشعرُ بنفسك متموجةً حولي كطائر ظامىءٍ يحوم مرفرفاً فوق ينبوع ماءٍ يخفره ثعبانٌ جائعٌ مخيف ، فما اعظم هذه الليلة وما اعمق اسرارها »

فاجبتها وقد تخيلتُ القنوط شبحاً مظلماً قابضاً علَى عنق حبنا ليميته في طفوليته «سيظل هذا الطائر حائماً مرفرفاً فوق الينبوع حتى يضنيه العطش فيرديه او يقبض عليه الثعبان المخيف فيمزّقهُ و يلتهمهُ»

فقالت متأثرةً وصوتها يرتجف كالأَوتار الفضية «لا. لا يا صديقي فليبقَ هذا الطائر حياً. ليبقى هذا البلبل مغرداً حتى المساء. حتى ينتهي الربيع. حتى ينتهي العالم. حتى تنتهي الدهور. لا تخرسهُ لان صوته يحييني ولا توقف جناحيه لان حفيفهما يزيل الضباب عن قلبي»

فهمستُ متنهداً «الظمأ يقتله يا سلمى والخوف يميته»

فاجابت والكلام يتدفق بسرعةٍ من بين شفتيها المرتعشتين «ان ظمأ الروح اعذب من ارتواء المادّة وخوف النفس احبُّ من طمأنينة الجسد.. ولكن اسمع يا حبيبي — اسمعني جيداً — انا واقفة الان في باب حياة جديدة لا

اعرف عنها شيئاً · انا مثل عمياء تتلمس بيدها الجدران مخافةَ السقوط · انا جارية انزلني مال والدي الى ساحة النخاسين فابتاعني رجل من بين الرجال · انا لا احب هذا الرجل لانني اجهله وانت تعلم ان المحبة والجهالة لا تلتقيان ولكنني سوف اتعلم محبته · سوف اطيعه واخدمه واجعله سعيداً · سوف اهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة ان تهب الرجل القوي · اما انت فلم تزل في ربيع العمر ، امامك الحياة طريقاً وسيعة مفروشة بالازهار والرياحين · سوف تخرج الى ساحة العالم حاملاً قلبك مشعالاً متقداً · سوف تفتكر بحرّية وبحرّية تتكلم وتفعل · سوف تكتب اسمك على وجه الحياة لانك رجل · سوف تعيش سيداً لان فاقة والدك لاتجعلك عبداً ، وامواله لاتنزل بك الى سوق النخاسين حيث تُباع البنات وتُشرى · سوف تقترن بالصبية التي تختارها نفسك من بين الصبايا فتسكنها صدرك قبل ان تسكنها

منزلك وتشار كها بافكارك قبل ان تساهمها الايام الليالي »

وسكتت دقيقةً كيما تسترجع انفاسها ثم زادت بصوت تتابعه الغصات « ولكن أَ ههنا تفرّقنا سبل الحياة لتذهب بك الى امجـاد الرجل وتسير بي الى واجبات المرأَة ؟ أَ هكذا ينقضي الحلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة ؟ أَ هكذا تبتلع اللجة نغمة الشحرور وتنثر الرياحُ اوراق الوردة وتسحق الاقدام كأس الخمر ؟ أَباطلاً اوقفتنا تلك الليلة امام وجه القمر وباطلاً ضمنا الروح في ظلال هذه الياسمينة ؟ هل تسرّعنا بالصعود نحو الكواكب فكلت اجنحتنا وهبطت بنا الى الهاوية ؟ هل فاجأنا الحب نائماً فاستيقظ غاضباً ليعاقبنا ام هيجت انفاسنا نسمات الليل فانقلبت ريحاً شديدةً لتمزّقنا وتجرفنا كالغبار الى اعماق الوادي ؟ لم نخالف وصية ولم نذق ثمراً فكيف نخرج من هذه الجنة — لم نتآمر ولم نتمرد فلماذا نهبط الى الجحيم ؟ .. لا لا والف لا ولا . ان

الدقائق التي جمعتنا هي اعظم من الاجيال ، والشعاع الذي انار نفسينا هو اقوى من الظلام ، فإن فرّقتنا العاصفة عَلَى وجه هذا البحر الغضوب فالامواج تجمعنا عَلَى ذلك الشاطئ الهادئ ، وان قتلتنا هذه الحياة فذاك الموت يحيينا ····

ان قلب المرأَة لا يتغير مع الزمن ولا يتحوّل مع الفصول · قلب المرأَة ينازع طويلاً ولكنه لا يموت · قلب المرأَة يشابه البرّية التي يتخذها الانسان ساحةً لحروبه ومذابحه ، فهو يقتلع اشجارها ويحرق اعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً الى نهاية الدهور··· والان قد قضي الأَمر فماذا نفعل ؟ قل لي ماذا نفعل وكيف نفترق واي متى نلتقي ؟ هل نحسب الحب ضيفاً غريباً اتى بهِ المساء وابعده الصباح ؟ أَ نحسب هذه العاطفة النفسية حلماً ابانهُ الكرى ثم اخفتهُ اليقظة ؟

أَ نحسب هذا الاسبوع ساعةَ سكرٍ ما لبثت ان قضت بالصحو والانتباه ؟ ٠٠٠٠٠٠ ارفع رأسك لارى عينيك يا حبيبي ٠ افتح شفتيك لاسمع صوتك ٠ تكلم ٠ اخبرني ٠ حدثني ٠ هل تذكرني بعد ان تغرّق العاصفة سفينتي ايامنا ؟ هل تسمع حفيف اجنحتي في سكينة الليل ٠ هل تشعر بانفاسي متموجةً عَلَى وجهك وعنقك ؟ هل تصغي لتنهداتي متصاعدةً بالتوجع منخفضةً بالغصات ؟ وهل ترى خيالي قادماً مع خيالات الظلام مضمحلاً مع ضباب الصباح ؟ قل لي يا حبيبي — قل لي ماذا تكون لي بعد ان كنت نوراً لعينيَّ ونغمة لاذني وجناحاً لروحي : ماذا تكون ؟ »

فاجبتها وحبات قلبي تذوب في عينيَّ « سا كون لكِ يا سلمى مثلما تريدينني ان اكون »

فقالت « اريدك ان تحبني ٠ اريدك ان تحبني الى نهاية ايامي ٠ اريدك ان تحبني مثلما يحب الشاعر افكاره المحزنة ٠

اريدك ان تذكرني مثلما يذكر المسافر حوض ماءٍ هادئ رأى فيه خيالَ وجهه قبل ان يشرب من مائه · واريدك ان تذكرني مثلما تذكر الأمُّ جنيناً مات في احشائها قبل ان يرى النور · واريدك ان تفتكر بي مثلما يفكر الملك الرؤُوف بسجين مات قبل ان يبلغه عفوه · اريدك ان تكون لي اخاً وصديقاً ورفيقاً واريدك ان تزور والدي في وحدته وتعزيه في انفراده لانني عما قريب ساتركه واصير غريبةً عنه »

فاجبتها « سأَفعل كل ذلك يا سلمى · سوف اجعل روحي غلافاً لروحكِ وقلبي بيتاً لجمالكِ وصدري قبراً لاحزانكِ · سوف احبكِ يا سلمى محبة الحقول للربيع وسوف احيى بكِ حياة الازاهر بحرارة الشمس · سوف اترنم باسمكِ مثلما يترنم الوادي بصدى رنين الاجراس المتمايلة فوق كنائس القرى، سوف اصغي لاحاديث نفسكِ مثلما

تصغي الشواطئ لحكاية الامواج ‥ ساذكركِ يا سلمى مثلما يذكر الغريب المستوحشُ وطنه المحبوب ، والفقيرُ الجائعُ مائدةَ الطعام الشهية ، والملك المخلوع ايام عزّهِ ومجده ، والاسير الكئيب ساعات الحرية والطمأنينة . سوف افتكر بكِ مثلما يفكّر الزارع باغمار السنابل وغلة البيادر ، والراعي الصالح بالمروج الخضراء والمناهل العذبة »

كنتُ اتكلم وسلمى تنظر الى اعماق الليل وتتأوه بين الآونة والاخرى ونبضات قلبها تتسارع وتتهامل كأَنها امواج بحر بين صعود وهبوط ، ثم قالت « غداً تصير الحقيقة خيالاً واليقظة حلماً فهل يكتفي المشتاق بعناق الخيال ويرتوي الظمآن من جداول الاحلام ؟ »

فاجبتها قائلاً « غداً يسير بكِ القدر الى احضان العائلة المملوءَة بالراحة والهدوء ، ويسير بي الى ساحة العالم حيث الجهاد والقتال . انتِ الى منزل رجل يسعد بجمالكِ

وطهر نفسكِ · وانا الى مكامن ايامٍ تعذبني باحزانها وتخيفني باشباحها · انتِ الى الحياة وانا الى النزاع · انتِ الى الانس والإِلفة وانا الى الوحشة والانفراد · ولكنني سأَرفعُ في وادي ظل الموت تمثالاً للحب واعبده · سأَتخذ الحب سميراً واسمعه منشداً واشربه خمراً والبسه ثوباً · عند الفجر سينبهني الحب من رقادي ويسير امامي الى البرية البعيدة · وعند الظهيرة سيقودني الى ظل الاشجار فاربض مع العصافير المحتمية من حرارة الشمس · وفي المساء سيوقفني امام المغرب ويسمعني نغمة وداع الطبيعة للنور ويريني اشباح السكينة سابحةً في الفضاء · وفي الليل سيعانقني فانام حالمًا بالعوالم العلوية حيث نقطن ارواح العشاق والشعراء · في الربيع سأَمشي والحب جنباً لجنب مترنمين بين التلول والمنحدرات متبعين آثار اقدام الحياة المخططة بالبنفسج والاقحوان ، شاربين بقايا الامطار بكؤُوس النرجس والزنبق · وفي

الصيف ساتكيءَ والحب ساندين رأسينا الى اغمار القش مفترشين الاعشاب ملتحفين السماء ساهرين مع القمر والنجوم · وفي الخريف سأذهب والحب الى الكروم فنجلس بقرب المعاصر ناظرين الى الاشجار وهي تخلع اثوابها المذهبة متأملين باسراب الطيور الراحلة الى الساحل · وفي الشتاء ساجلس والحب بقرب المواقد تالين حكايات الاجيال مرددين اخبار الامم والشعوب · في ايام الشبيبة سيكون لي الحب مهذباً وفي الكهولة عضداً وفي الشيخوخة مؤنساً سيظل الحب معي يا سلمى الى نهاية العمر ، الى ان يجيء الموت الى ان تجمعني بكِ قبضة الله »

كانت الالفاظ تتصاعد مسرعةً من اعماق نفسي كأَنها شعلات من نار تنمو وتتطاير ثم تتبدد وتضمحل في زوايا تلك الحديقة وكانت سلمى مصغية والدموع تنهمر من عينيها كأَن اجفانها شفاه تجيبني بالدموع علَى الكلام

ان الذين لم يهبهم الحبُّ اجنحةً لا يستطيعون ان يطيروا الى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم السحري الذي طافت فيه روحي وروح سلمى في تلك الساعة المحزنة بافراحها المفرحة باوجاعها. ان الذين لم يتخذهم الحب اتباعاً لا يسمعون الحب متكلماً ، فهذه الحكاية لم تُكتب لهم ، فهم وان فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم ان يروا ما يسيل بين سطورها من الاشباح والخيالات التي لا تلبس الحبر ثوباً ولا تتخذ الورق مسكناً. ولكن ايُّ بشري لم يرشف من خمرة الحب في احدى كاساته ؟ ايةُ نفس لم تقف متهيبةً في ذلك الهيكل المنير المرصوف بحبات القلوب المسقوف بالاسرار والاحلام والعواطف ؟ اي زهرة لم يسكب الصباح قطرةً من الندى بين اوراقها ، واي ساقية تضلُّ طريقها ولا تذهب الى البحر ؟

ورفعت سلمى اذ ذاك رأسها نحو السماء المزينة

بالكواكب ومدت يديها الى الامام وكبرت عيناها وارتجفت شفتاها وظهر عَلَى وجهها المصفر كل ما نفس المرأَة المظلومة من الشكوى والقنوط والأَلم ثم صرخت قائلة « ماذا فعلتِ المرأَة يارب فاستحقت غضبك؟ ماذا اتت من الذنوب ليتبعها سخطك الى آخر الدهور ؟ هل اقترفت جرماً لا نهاية لفظاعته ليكون عقابك لها بغير نهاية ؟ انت قويٌّ يا رب وهي ضعيفة فلماذا تبيدها بالاوجاع ؟ انت عظيمٌ وهي تدبُّ حول عرشك فلماذا تسحقها بقدميك؟ انت عاصفة شديدة وهي كالغبار امام وجهك فلماذا تذريها عَلَى الثلوج . انت جبَّارٌ وهي بائسة فلماذا تحاربها ؟ انت بصير عليم وهي تائهة عمياء فلماذا تهلكها ؟ انت توجدها بالمحبة فكيف بالمحبة تفنيها ؟ بيمينك ترفعها اليك وبشمالك تدفعها الى الهاوية وهي جاهلة لا تدري أَنَّى ترفعها وكيف تدفعها . في فمها تنفخ نسمة الحياة وفي قلبها تزرع بزور الموت . عَلَى سبل

السعادة تسيّرها راجلةً ثم تبعث الشقاء فارساً ليصطادها ٠ في حنجرتها تبث نغمة الفرح ثم تغلق شفتيها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة ٠ باصابعك الخفية تمنطق باللذة اوجاعها وباصابعك الظاهرة ترسم هالات الاوجاع حول ملذاتها ٠ في مضجعها تخفي الراحة والسلامة وبجانب مضجعها تقيم المخاوف والمتاعب ٠ بارادتك تحيي اميالها ومن اميالها تتولد عيوبها وزلاتها ٠ بمشيئتك تريها محاسن مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلبُ محبتها للحسن مجاعةً مهلكة ٠ بشريعتك تزوّج روحها من جسد جميل وبقضائك تجعل جسدها بعلاً للضعف والهوان ٠٠ انت تسقيها الحياة بكأس الموت والموت بكأس الحياة ٠ انت تطهرها بدموعها وبدموعها تذيبها ٠ انت تملأ جوفها من خبز الرجل ثم تملأُ حفنة الرجل من حبّات صدرها ٠٠٠٠ انت انت يا رب قد فتحت عينيّ بالمحبة وبالمحبة اعميتني ٠ انت قبلتني بشفتيك وبيدك القوية

صفعتني · انت زرعت في قلبي وردة بيضاء وحول هذه الوردة انبت الاشواك والحسك · انت اوثقت حاضري بروح فتىً احبه وبجسد رجل لا اعرفهُ قيدت ايامي ، فساعدني لاكون قويةً في هذا الصراع المميت واسعفني لابقى امينة وطاهرة حتى الموت · · · لتكن مشيئتك يا رب · ليكن اسمك مباركاً الى النهاية »

وسكتت سلمى وظلت ملامحها تتكلم ثم احنت رأْسها وارخت ذراعيها وانخفض هيكلها كأَن القوى الحيوية قد تركتها فبانت لناظري كغصن قصفته العاصفة والقته الى الحضيض ليجف ويندثر تحت اقدام الدهر · فأَخذتُ يدها المثلجة بيدي الملتهبة وقبلتُ اصابعها باجفاني وشفتيَّ ولما حاولت تعزيتها بالكلام وجدتُني احرى منها بالتعزية والشفقة فبقيت صامتاً حائراً متأَملاً شاعراً بتلاعب الدقائق بعواطفي مصغياً لأَنة قلبي في داخلي خائفاً من نفسي عَلَى نفسي

ولم ينبس احدنا ببنت شفة في ما بقي من تلك الليلة لان اللوعة اذا عظمت تصير خرساء فبقينا ساكتين جامدين كعمودي رخام قبرهما الزلزال في التراب · ولم يعد احدنا يريد ان يسمع الآخر متكلماً لان خيوط قلبينا قد وهت حتى صار التنهد دون الكلام يقطعها

انتصف الليل ونمت رهبة السكوت وطلع القمر ناقصاً من وراء صنين و بان بين النجوم كوجه ميت شاحب غارق في المساند السوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنعشه · وظهر لبنان كشيخ لوت ظهره الاعوام واناخت هيكله الاحزان وهجر اجفانه الرقاد فبات يساهر الدجى و يترقب الفجر كملك مخلوع جالس عَلَى رماد عرشه بين خرائب قصره · ان الجبال والاشجار والانهار تتبدل هيئاتها ومظاهرها بتقلب الحالات والازمنة مثلما تتغير ملامح وجه الانسان بتغيير افكاره وعواطفه · فشجرة الحور التي تتعالى في النهار

كعروس جميلة يلاعب النسيم اثوابها تظهر في المساء كعمود دخان يتصاعد نحو اللا شيء · والصخر الكبير الذي يجلس عند الظهيرة كجبار قوي يهزأُ بعاديات الزمن يبدو في الليل كفقيرٍ بائسٍ يفترش الثرى و يلتحف الفضاء · والساقية التي نراها عند الصباح متلمعةً كذوب اللجين ونسمعها مترنمةً باغنية الخلود نخالها في المساء مجرى دموع يتفجر من بين اضلع الوادي ونسمعها تندب وتنوح كالثكلى · ولبنان الذي ظهر منذ اسبوع بكل مظاهر الجلال والرونق عندما كان القمر بدراً والنفس راضيةً قد بان في تلك الليلة كئيباً منهوكاً مستوحشاً امام قمرٍ ضئيلٍ ناقصٍ هائمٍ في عرض السماء وقلب خافق معتل في داخل الصدر

وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحبُّ واليأْس شبحين هائلين هذا باسطٌ جناحيه فوق رأْسينا وذاك قابضٌ باظافره عَلَى عنقينا · هذا يبكي مرتاعاً وذاك يضحك ساخراً ·

ولما اخذت يد سلمى ووضعتها عَلَى شفتيَّ متبركاً دنت مني ولثمت مفرق شعري ثم عادت وارتمت عَلَى المقعد الخشبي واطبقت اجفانها وهمست ببطءٍ « اشفق يا رب وشدد جميع الاجنحة المتكسرة »

انفصلت عن سلمى وخرجت من تلك الحديقة شاعراً بنقاب كثيف يوشي مداركي الحسيــة مثلما يغمر الضباب وجه البحيرة · وسرت وخيالات الاشجار القائمة عَلَى جانبي الطريق تحترك امامي كأنها اشباحٌ قد انبثقت من شقوق الارض لتخيفني ، واشعة القمر الضعيفة ترتعش بين الغصون كأَنها سهام دقيقة تريشها ارواح الجان السابحة في الفضاء نحو صدري ، والسكينة العميقــة تخيم عليَّ كأَنها اكفٌّ سوداء ثقيلة القتها الظلمة عَلَى جسدي · كل ما في الوجود وكل معنىً في الحياة وكل سر في النفس قد صار قبيحاً رهيباً هائلاً ، فالنور المعنوي الذي اراني جمال العالم

وبهجة الكائنات قد انقلب ناراً تحرق كبدي بلهيبها وتستر نفسي بدخانها ، والنغمة التي كانت تضم اليها اصوات المخلوقات وتجعلها نشيداً علوياً قد استحالت في تلك الساعة الى ضجيج اروع من زمجرة الأَسد واعمق من صراخ الهاوية

بلغتُ غرفتي وارتميت عَلَى فراشي كطائر رماه الصياد فسقط بين السياج والسهم في قلبه ، وظلت عاقلتي تتراوح بين يقظة مخيفة ونوم مزعج وروحي في داخلي تردد في الحالتين كلمات سلمى « اشفق يا رب وشدد جميع الاجنحة المتكسرة »



6

The Throne of Death

٨

امام عرش الموت

انما الزيجة في ايامنا هذه تجارة مضحكة مبكية يتولى امورها الفتيان وآباء الصبايا · الفتيان يربحون في اكثر المواطن والآباء يخسرون دائماً اما الصبايا المنتقلات كالسلع من منزلٍ الى آخر فتزول بهجتهنّ ونظير الامتعة العتيقة يصير نصيبهنّ زوايا المنازل حيث الظلمة والفناء البطيء

ان المدنية الحاضرة قد انمت مدارك المرأة قليلاً ولكنها اكثرت اوجاعها بتعميم مطامع الرجل · كانت المرأة بالأمس خادمةً سعيدة فصارت اليوم سيدةً تعسة · كانت بالامس عمياء تسير في نور النهار فاصبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل · كانت جميلة بجهلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قبيحة بتفننها سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها ، فهل يجيء يومٌ

يجتمع في المرأة الجمال بالمعرفة والتفنن بالفضيلة وضعف الجسد بقوة النفس ؟ انا من القائلين ان الارتقاء الروحي سنة في البشر والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعّالة ، فاذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخرت بشيء آخر فلأن العقبات التي تبلغنا قمة الجبل لا تخلو من مكامن اللصوص و كهوف الذئاب · ففي هذا الجيل الشبيه بالغيبوبة التي تتقدم اليقظة — في هذا الجيل القابض بكفيه على تراب الاجيال الغابرة و بزور الاجيال الآتية – في هذا الجيل الغريب بامياله وامانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل · وسلمى كرامه كانت في بيروت رمز المرأة الشرقية العتيدة ، ولكنها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحية الزمن الحاضر ونظير زهرة اختطفها تيار النهر قد سارت قهراً في موكب الحياة نحو الشقاء

وتزوج منصور بك غالب من سلمى فسكنا معاً في منزل نخم قائم عَلَى شاطئ البحر في راس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والاغنياء ، وبقي فارس كرامه وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعي بين اغنامه ومضت ايام العرس وانقضت ليالي الافراح ومرَّ الشهرُ الذي يدعوه الناس عسلاً تاركاً وراءه شهور الخلّ والعلقم مثلما تترك امجادُ الحروب جماجمَ القتلى في البرية البعيدة .. ان بهرجة الاعراس الشرقية تصعد بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسر الى ما وراء الغيوم ثم تهبط بهم هبوط حجر الرحى الى اعماق اليمّ ، بل هي مثل آثار الاقدام عَلَى رمال الشاطئ لا تلبث ان تمحوها الامواج

وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف ومحبتي لسلمى تتدرج من شغف فتى في صباح العمر بامرأة حسناء الى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتيم

نحو روح امه الساكنة في الابدية ، فالصبابة التي كانت
تمتلك كليتي قد تحولت الى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها .
والولع الذي كان يستدر الدموع من عينيَّ قد انقلب ولهاً
يستقطر الدم من قلبي . وأَنة الحنين التي كانت تملأُ ضلوعي
اصبحت صلاة عميقة تقدمها روحي في السكينة امام السماء
مستمدةً السعادة لسلمى والغبطة لبعلها والطمانينة لوالدها .
ولكن باطلاً كنت اشفق وابتهل واصلي لان تعاسة سلمى
كانت علة في داخل النفس لا يشفيها سوى الموت . اما
بعلها فكان من اولئك الرجال الذين يحصلون بغير تعب عَلَى
كل ما يجعل الحياة هنيئةً ولا يقنعون بل يطمحون دائماً
الى ما ليس لهم وهكذا يظلون معذبين بمطامعهم الى نهاية
ايامهم . وباطلاً كنت ارجو الطمانينة لفارس كرامه لان
صهره لم يستلم يد ابنته ويحصل عَلَى اموالها الطائلة حتى
نسيهُ وهجره بل صار يطلب حتفه توصلاً الى ما بقي من ثروته

كان منصور بك شبيهاً بعمه المطران بولس غالب وكانت اخلاقه كاخلاقه ونفسه صورة مصغرة لنفسه ولم يكن الفرق بينهما الاَّ بما يفرق الرياء عن الانحطاط . كان المطران يبلغ امانيه مستتراً باثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه محتمياً بالصليب الذهبي المعلق عَلَى صدره اما ابن اخيه فكان يفعل كل ذلك جهاراً وعنوة . كان المطران يذهب الى الكنيسة في الصباح ويصرف ما بقي من النهار منتزعاً الاموال من الارامل واليتامى وبسطاء القلب ، اما منصور بك فكان يقضي النهار كله متبعاً ملذاته ملاحقاً شهواته في تلك الازقة المظلمة حيث يختمر الهواء بانفاس الفساد . كان المطران يقف يوم الاحد امام المذبح ويعظ المؤمنين بما لا يتعظ به ويصرف ايام الاسبوع مشتغلاً بسياسة البلاد . اما ابن اخيه فكان يصرف جميع ايامه متاجراً بنفوذ عمه بين طالبي الوظائف ومريدي الوجاهة . كان المطران لصاً

يسير مختبئاً بستائر الليل اما منصور بك فكان محتالاً يمشي بشجاعة في نور النهار

كذا تبيد الشعوب بين اللصوص والمحتالين مثلما تفنى القطعان بين انياب الذئاب وقواطع الجزارين ، وهكذا تستسلم الامم الشرقية الى ذوي النفوس المعوجة والاخلاق الفاسدة فتتراجع الى الوراء ثم تهبط الى الحضيض فيمر الدهر ويسحقها باقدامه مثلما تسحق مطارق الحديد آنية الفخار ..

وماذا يا ترى يجعلني الان ان اشغل هذه الصفحات بالكلام عن امم بائسة يائسة وانا قد خصصتها لتدوين حكاية امرأة تاعسة وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلمسه الحب بافراحه حتى صفعه باحزانه ؟ .. لماذا تراود الدموع اجفاني لذكر شعوب خاملة مظلومة وانا قد وقفت دموعي عَلَى ذكرى ايام امرأة ضعيفة لم تعانق الحياة حتى احتضنها

الموت ولكن أَليست المرأَة الضعيفة هي رمز الامة المظلومة ؟ أَليست المرأَة المتوجعة بين اميال نفسها وقيود جسدها هي كالأمة المتعذبة بين حكامها و كهانها ؟ أَو ليست العواطف الخفية التي تذهب بالصبية الجميلة الى ظلمة القبر هي كالعواصف الشديدة التي تغمر حياة الشعوب بالتراب ؟ ان المرأَة من الأمة بمنزلة الشعاع من السراج وهل يكون شعاع السراج ضئيلاً اذا لم يكن زيته شحيحاً ؟

• ✲ • ✲ • ✲ •

مضت ايام الخريف وعرّت الرياح الاشجار متلاعبةً باوراقها الصفراء مثلما تداعب الانواء زبد البحر، وجاء الشتاء باكياً منتحباً وانا في بيروت ولا رفيق لي سوى احلام تتصاعد بنفسي تارةً فتبلغها الكواكب وتنخفض بقلبي طوراً فتلحده بجوف الارض

ان النفس الكئيبة تجد راحةً بالعزلة والانفراد فتهجر

الناس مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتى يبرأ او يموت

ففي ذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامه تركت وحدتي وذهبت لعيادته ماشياً عَلَى ممرٍّ منفرد بين اشجار الزيتون المتلمعة اوراقها الرصاصية بقطرات المطر ، متنحياً عن الطريق العمومية حيث تزعج ضجة المركبات سكينة الفضاء

بلغت منزل الشيخ ودخلت عليه فوجدته ملقىً عَلَى فراشه مضنى الجسم ، شاحب الوجه ، اصفر اللون ، وقد غرقت عيناه تحت حاجبيه فبانتا كهوَّتين عميقتين مظلمتين تجول فيهما اشباح السقم والأَلم ، فالملامح التي كانت بالأَمس عنوان البشاشة والانبساط قد تقلصت واكفهرت واصبحت كصحيفة رمادية متجعدة تكتب عليها العلة سطوراً غريبة ملتبسة . واليدان اللتان كانتا مغلفتين باللطف

واللدانة قد نحلتا حتى بدت عظام اصابعهما من تحت الجلد كقضبانٍ عارية ترتعش امام العاصفة

ولما دنوت منهُ سائلاً عن حاله حوَّل وجههُ المهزول نحوي وظهر عَلَى شفتيه المرتجفتين خيال ابتسامة محزنة ، وبصوت ضعيف خافت خلتهُ آتياً من وراء الجدران قال «اذهب - اذهب يا ابني الى تلك الغرفة وامسح دموع سلمى وسكن روعها ثم عد بها اليَّ لتجلس بجانب فراشي . .»

دخلتُ الغرفة المحاذية فوجدت سلمى منطرحةً عَلَى مقعد وقد غمرت رأْسها بزنديها وغرقت وجهها بالمساند وأَمسكت انفاسها كيلا يسمع والدها نحيبها ، فاقتربتُ منها ببطء ولفظتُ اسمها بصوت اقرب الى التنهد منهُ الى الهمس، فاحتركتْ مضطربةً كنائم تراوده الاحلام المخيفة ثم استوت عَلَى مقعدها ونظرت اليَّ بعينين شاخصتين جامدتين كأَنها ترى شبحاً في عالم الروءْيا ولا تصدّق حقيقة وجودي في ذلك المكان

وبعد سكوت عميق أَرجعنا بتأْثيراتهِ السحرية الى تلك الساعات التي سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى دموعها باطراف بنانها وقالت متحسرةً «أرأَيت كيف تبدّلت الايام؟ أرأَيت كيف أضلنا الدهر فسرنا مسرعين الى هذه الكهوف المفزعة؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضة الحب وفي هذا المكان يجمعنا الان الشتاء امام عرش الموت، فما ابهى ذلك النهار وما اشد ظلمة هذا الليل»

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصاتُ اواخرها، ثم عادت وسترت وجهها بيديها كأَن ذكرى الماضي قد تجسدت ووقفت امامها فلم تشأْ ان تراها فوضعتُ يدي علَى شعرها قائلاً «تعالي يا سلمى — تعالي ننتصب كالابراج امام الزوبعة. هلمي نقف كالجنود امام الاعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا، فانْ صرعنا نموتُ كالشهداء، وإن تغلبنا نعيش كالابطال .. ان عذاب النفس بسباتها

امام المصاعب والمتاعب لهو اشرف من تقهقرها الى حيث الامن والطمأنينة. فالفراشة التي تظل مرفرفة حول السراج حتى تحترق هي اسمى من الخلد الذي يعيش براحة وسلامة في نفقهِ المظلم. والنواة التي لا تحتمل برد الشتاء وثورات العناصر لا تقوى عَلَى شقّ الارض ولن تفرح بجمال نيسان... هلمي نسير ياسلمى بقدم ثابتة عَلَى هذه الطريق الوعرة رافعين اعيننا نحو الشمس كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصخور، والافاعي المنسابة بين الاشواك، فان اوقفنا الخوف في منتصف الطريق اسمعتنا اشباحُ الليلِ صراخَ الاستهزاء والسخرية وان بلغنا قمة الجبل بشجاعة نترنم معنا ارواحُ الفضاء بانشودة النصر والاستظهار.. خففي عنكِ ياسلمى وجففي دموعكِ واخفي هذه الكآبة الظاهرة عَلَى محياكِ وقومي نجلس بجانب فراش والدكِ لان حياته من حياتكِ وشفاءه بابتسامكِ

فنظرت اليَّ نظرةً ملؤُها الحنان والرأْفة والانعطاف ثم قالت «أَتطلب مني الصبر والتجلد وفي عينيك معنى اليأْس والقنوط · أَيعطي الفقير الجائع خبزه الى الجائع الفقير · او يصف العليل دواءً لعليل آخر وهو احرى بالدواء ؟ »

ثم وقفت وسارت امامي منحنية الرأْس الى غرفة والدها جلسنا بقرب مضجع الشيخ العليل وسلمى تتكلف الابتسام وهدوء البال وهو يتكلف الراحة والقوة ، وكل منهما شاعرٌ بلوعة الاخر عالمٌ بضعفه سامعٌ غصات قلبه ، فكانا مثل قوَّتين متضارعتين تفنيان بعضهما بعضاً في السكينة · والدٌ دنف يذوب ضنىً لتعاسة ابنته وابنة محبة تذبل متوجعةً بعلة والدها · نفسٌ راحلة ونفسٌ يائسة تتعانقان امام الحب والموت وانا بينهما اتحمل ما بي وأُقاسي ما بهما · ثلاثة جمعتهم يد القضاء ثم قبضت عليهم بشدة حتى سحقتهم · شيخٌ يمثل بيتاً قديماً هدمهُ الطوفان ، وصبية

تحاكي زنبقةً قطع عنقها حدُّ المنجل ، وفتىً يشابه غرسةً ضعيفة لوت قامتها الثلوج ، وجميعنا مثل العوبة بين اصابع الدهر

وتحرَّكَ الشيخ اذ ذاك بين اللحف ومدَّ يده النحيلة نحو سلمى وبصوت اودعه كل ما في قلب الاب من الرقة والرأفة وكل ما في صدر العليل من السقم والأَلم قال « ضعي يدكِ في يدي ياسلمى »

فمدَّتْ يدها والقتها بين اصابعهِ فضمها بلطف ثم زاد قائلاً « لقد شبعتُ من السنين ياولدي . قد عشتُ طويلاً وتلذذتُ بكل ما تثمره الفصول وتمتعتُ بكل ما تبرزه الايام والليالي . قد لاحقتُ الفراشَ صبياً وعانقتُ الحبَّ فتىً وجمعتُ المالَ كهلاً وكنتُ في جميع هذه الادوار سعيداً مغبوطاً .. فقدتُ أُمكِ ياسلمى قبل ان تبلغي الثالثة ولكنها أَبقتكِ لي كنزاً ثميناً فكنتِ تنمين بسرعة نمو الهلال ،

وتنعكس عَلَى وجهكِ ملامح أُمكِ مثلما تنعكس اشعة النجوم في حوض ماء هادىء ، وتظهر اخلاقها ومزاياها باعمالكِ واقوالكِ ظهور الحلى الذهبية من وراء النقاب الرقيق ، فتعزيتُ بكِ ياولدي لانكِ كنتِ مثلها جميلة وحكيمة .. والآن قد صرتُ شيخاً طاعناً وراحة الشيوخ بين اجنحة الموت الناعمة ، فتعزي ياولدي لانني بقيت لاراكِ امرأة كاملة وافرحي لانني سابقى بكِ حياً بعد موتي . ان ذهابي الآن هو مثل ذهابي غداً او بعده ، لان ايامنا مثل اوراق الخريف تتساقط وتتبدد امام وجه الشمس ، فان اسرعتْ بي الساعات الى الابدية فلأَنها علمت بان روحي قد اشتاقت الى لقاء أُمكِ ...»

لفظ الكلمات الاخيرة بنغمة مفعمة بحلاوة الحنين والرجاء ولاحت عَلَى وجههِ المنقبض اشعةٌ شبيهة بذلك النور الذي ينبثق من اجفان الاطفال . ثم مدَّ يده بين

المساند المحيطة برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة يمنطقها اطارٌ من الذهب قد نعَّمت حدوده ملامس الايدي ومحت نقوشهُ قُبَل الشفاه ، ثم قال بدون ان يحول عينيه عن الرسم « اقتربي ياسلمى اقتربي مني ياولدي لاريكِ خيال أُمكِ . تعالي وانظري ظلها عَلَى صفحة من الورق »

فدنت سلمى ماسحةً الدموع من مقلتيها كيلا تحول بين ناظرها والرسم الضئيل ، وبعد ان احدقت به طويلاً كأنهُ مرآة تعكس معانيها وشكل وجهها قرَّبتهُ من شفتيها وقبلتهُ بلهفةٍ مراراً متوالية ثم صرخت قائلة « ياأُماه . ياأُماه . ياأُماه » ولم تزد عَلَى هذه الكلمة بل عادت ووضعت الرسم عَلَى شفتيها المرتعشتين كأنها تريد ان تبث فيه الحياة بانفاسها الحارَّة

ان اعذب ما تحدثهُ الشفاه البشرية هو لفظة (الأُم) واجمل مناداة هي (ياأُمي) . كلمة صغيرة كبيرة مملوءة

بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة . الأُم هي كل شيء في هذه هذه الحياة — هي التعزية في الحزن والرجاء في اليأس والقوة في الضعف — هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران ، فالذي يفقد أُمهُ يفقد صدراً يسند اليه رأسهُ ويداً تباركه وعيناً تحرسهُ . . .

كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الامومة فالشمس هي أُم هذه الارض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء الاَّ بعد ان تنوّمها عَلَى نغمة امواج البحر وترنيمة العصافير والسواقي ، وهذه الارض هي أُمٌّ للاشجار والازهار تلدها وترضعها ثم تفطمها . والاشجار والازهار تصير بدورها أُمهات حنونات للاثمار الشهية والبزور الحية . وأُم كل شيء في الكيان هي الروح الكلية الازلية الابدية المملوءة بالجمال والمحبة

وسلمى كرامه لم تكن تعرف امها لانها ماتت وهي طفلة وقد شهقت متأثرةً عندما رأَت رسمها ونادتها « يا اماه » اسر ارادتها لان لفظة الأم تختبئُ في قلوبنا مثلما تختبئ النواة في قلب الارض وتنبثق من بين شفاهنا في ساعات الحزن والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الوردة في الفضاء الصافي والممطر

كانت سلمى تحدق برسم أُمها ثم تقبله بلهفة ثم تلزّه الى صدرها الخفوق ثم تتأَوه متنهدةً ومع كل تنهدة تفقد جزءًا من قواها حتى اذا ما وهت الحياةُ في جسدها النحيل هوت وسقطت بجانب سرير ابيها ، فوضع كلتا يديه عَلى رأْسها قائلاً « قد أَريتكِ يا ولدي شبحَ امكِ عَلَى صفحة من الورق فاصغي اليَّ لاسمعكِ اقوالها »

فرفعت سلمى رأْسها مثلما تفعل الفراخ في العش عندما تسمع حفيف اجنحة العصفورة بين القضبان ، ونظرت اليه

مصغية صاغرة كأن ذاتها المعنوية قد استحالت الى اعين محدقة وآذان واعية

فقال والدها « كنتِ طفلة رضيعة عندما فقدتْ امكِ والدها الشيخ فحزنتْ لفقده وبكت بكاءَ حكيمٍ متجلدٍ ولكنها لم تعد من جانب قبره حتى جلستْ بجانبي في هذه الغرفة وأخذت يدي براحتيها وقالت (قد مات والدي يا فارس وانت باقٍ لي وهذه هي تعزيتي . ان القلب بعواطفهِ المتشعبة يماثل الارزة باغصانها المتفرقة فاذا ما فقدت شجرة الأرز غصناً قوياً تتألم ولكنها لا تموت بل تحوّل قواها الحيوية الى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملأ بفروعه الغضة مكان الغصن المقطوع) . هذا ما قالته والدتكِ يا سلمى عندما مات ابوها وهذا ما يجب عليكِ ان تقوليه عندما يأخذ الموت جسدي الى راحة القبر وروحي الى ظلّ الله »

فاجابت سلمى متفجعةً « فقدتْ امي والدها فبقيتَ

انت لها فمن يبقى لي اذا فقدتك يا والدي ؟ مات والدها وهي في ظلال زوج محب فاضل امين — مات والدها فبقي لها طفلة تغمر رأسها الصغير بثدييها وتطوق عنقها بذراعيها فمن يبقى لي اذا فقدتك ياوالدي ؟ انت أَبي وأُمي ورفيق حداثتي ومهذب شبيبتي فبمن استعيض اذا ما ذهبتَ عني؟»

قالت هذا وحوَّلت عينيها الدامعتين نحوي وامسكت بيمينها طرف ثوبي ثم قالت « ليس لي غير هذا الصديق ياوالدي ولن يبقى لي سواه اذا ما تركتني ، فهل اتعزى به وهو متعذب مثلي؟ هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير؟ ان الحزينة لا تتصبر بحزن جارتها كما ان الحمامة لا تطير باجنحة مكسورة ... هو رفيق لنفسي ولكنني قد اثقلت عاتقهُ باشجاني حتى لويتُ ظهره وسملتُ عينيه بعبراتي فلم يعد يرى غير الظلمة . هو اخٌ احبهُ ويحبني ولكنهُ مثل جميع الاخوة يشترك بالمصيبة ولا يخففها و يساعد بالبكاء فيزيد

الدمع مرارة والقلب احتراقاً »

كنتُ اسمع سلمى متكلمةً وعواطفي تنمو وصدري يضيق حتى شعرت بان اضلعي تكاد تنفجر خناجر وفوهات . اما الشيخ فكان ينظر اليها وجسده المهزول يهبط ببطءٍ بين الوسائد والمساند ونفسهُ المتعبة ترتجف كشعلة السراج امام الريح . ثم بسط ذراعيه وقال بهدوءٍ « دعيني اذهب بسلام ياولدي . لقد لمحت عيناي ما وراء الغيوم فلن احولهما نحو هذه الكهوف . . دعيني أَطير فقد كسرتُ باجنحتي قضبان هذا القفص . قد نادتني أَمكِ ياسلمى فلا توقفيني . . ها قد طاب الريح وتبدَّد الضباب عن وجه البحر فرفعتْ السفينة شراعها وتأَهبت للمسير فلا توقفيها ولا تنزعي دفتها . . دعي جسدي يرقد مع الذين رقدوا ودعي روحي تستيقظ لان الفجر قد لاح والحلم قد انتهى . . . قبلي روحي بروحكِ . . قبليني قبلة رجاءٍ وأَمل . . ولا تسكبي قطرة من مرارة

الحزن على جسدي لئلا تمتنع الاعشاب والازهار عن امتصاص عناصره ٠٠ ولا تذرفي دموع اليأس عَلَى يديَّ لانها تنبت شوكاً عَلَى قبري ٠ ولا ترسمي بزفرات الاسى سطراً عَلَى جبهتي لان نسيم السحر يمرُّ ويقرأه فلا يحمل غبار عظامي الى المروج الخضراء ٠٠٠ قد احببتكِ بالحياة يا ولدي وسوف احبكِ بالموت فتظل روحي قريبةً منكِ لتحميكِ وترعاكِ »

والتفت الشيخ اليَّ وقد انطبقت اجفانه قليلاً فلم اعد ارى سوى خطين رماديين مكان عينيه ثم قال وسكينة الفناء تسترق الفاظه « اما انت يا ابني فكن اخاً لسلمى مثلما كان والدك لي ٠ كن قريباً منها في ساعات الشدة وكن صديقاً لها حتى النهاية : ولا تدعها تحزن لان الحزن عَلَى الاموات غلطة من اغلاط الاجيال الغابرة ٠ بل اتلُ عَلَى مسمعيها احاديث الفرح وانشدها اغاني الحيـاة فتسلو

وتتناسى ٠٠٠ قل لابيك ان يذكرني ٠٠ سله فيخبرك عن ماتي ايامي عندما كان الشباب يحلق بنا الغيوم ٠٠ قل له انني احببته بشخص ابنه في آخر ساعة من حياتي ٠٠٠»

وسكت دقيقةً وظلت اشباح الفاظه تدبّ عَلَى جدران الغرفة ثم عاد فنظر اليّ والى سلمى بوقت واحد وقال همساً «لا تدعوا طبيباً ليطيل بمساحيقه ساعات سجني لان ايام العبودية قد مضت فطلبتْ روحي حرّية الفضاء ٠٠ ولا تدعوا كاهناً الى جانب فراشي لان «تعازيمه» لا تكفر عن ذنوبي ان كنتُ خاطئاً ولا تسرع بي الى الجنة ان كنت بارّاً ٠٠ ان ارادة البشر لا تغير مشيئة الله كما ان المنجمين لا يحولون مسير النجوم ٠٠٠ اما بعد موتي فليفعل الاطباء والكهان ما شاءوا فاللجة تنادي اللجة اما السفينة فتظل سائرةً حتى تبلغ الساحل ٠٠٠»

. . . .

عندما انتصف ذلك الليل المخيف فتح فارس كرامه عينيه الغارقتين في ظلمة النزاع — فتحهما لآخر مرة — وحولهما نحو ابنته الجاثية بجانب مضجعه ، ثم حاول الكلام فلم يستطع لان الموت كان قد تشرب صوته فخرجت هذه الالفاظ لهاثاً عميقاً من بين شفتيه « ها قد ذهب الليل ·· وجاء الصباح ··· يا سلمى ·· يا ··· يا سلمى ····»

ثم نكس رأسه وابيض وجهه وابتسمت شفتاه واسلم الروح ·

ومدَّت سلمى يدها ولمست يد والدها فوجدتها باردة كالثلج فرفعت رأسها ونظرت اليه فرأَت وجهه مبرقعاً بنقاب الموت فجمدت الحياة في جسدها وجفت الدموع في محاجرها ، فلم تحترك ولم تصرخ ولم تتأوه بل بقيت محدقة به بعينين جامدتين كعيني التمثال ، ثم تراخت اعضاؤُها مثلما تتراخى طيات الثوب البليل ، وهبطت حتى لمست

جبهتها الارض ثم قالت بهدوءٍ « اشفق يا رب وشدد جميع الاجنحة المكسورة »

. . . .

مات فارس كرامه وعانقت الابدية روحه واسترجع التراب جسده واستولى منصور بك علَى امواله وظلت ابنته اسيرة تعاستها ترى الحياة مأْساة هائلة تمثلها المخاوف امام عينيها .

اما انا فكنت ضائعاً بين احلامي وهواجسي تتناوبني الايام والليالي مثلما تتناتب النسور والعقبان لحمان الفريسة . فكم حاولت ان افقد ذاتي بين صفحات الكتب لعلني استأْنس بخيالات الذين طواهم الدهر ، وكم جرّبت ان انسى حاضري لاعود بقرآءَة الاسفار الى مسارح الاجيال الغابرة فلم يجدني كل ذلك نفعاً بل كنتُ كمن يحاول اخماد النار بالزيت ، لانني لم اكن أرى من مواكب الاجيال

سوى اشباحها السوداء ولا اسمع من انغام الامم غير الندب والنواح ، فسفر ايوب كان عندي اجمل من مزامير داود ومراثي ارميا كانت احبّ لديّ من نشيد سليمان ونكبة البرامكة اشد وقعاً في نفسي من عظمة العباسيين وقصيدة ابن زريق اكثر تأثيراً من رباعيات الخيامي ورواية هملت اقرب الى قلبي من كل ما كتبه الافرنج.

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير اشباحنا الرهيبة وهكذا يصمّ اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات قلوبنا المضطربة..



٩

بين عشتروت والمسيح

Between Ashtaroth and Christ



بين تلك البساتين والتلول التي تصل اطراف بيروت باذيال لبنان يوجد معبد صغير قديم العهد محفور في قلب صخرة بيضاء قائمة بين اشجار الزيتون واللوز والصفصاف ، ومع ان هذا المعبد لا يبعد اكثر من نصف ميل عن طريق المركبات فقد قلّ مَن عرفه من محبي الآثار والخرائب القديمة ، فهو مثل اشياء كثيرة خطيرة في سوريا مختبئ وراء ستائر الاهمال ، فكأن الاهمال قد ابقاه محجوباً عن عيون الأثريين ليجعله خلوةً لنفوس المتعبين ومزاراً للمحبين المستوحشين .

والداخل الى هذا المعبـد العجيب يرى عَلَى الجدار الشرقي منه صورةً فينيقية الشواهد والبينات محفورة ـــفي في الصخر قد محت اصابع الدهر بعض خطوطها ولوّنت الفصول معالمها · وهي تمثل عشتروت ربّة الحب والجمال جالسة عَلَى عرش فخم ومن حولها سبع عذارى عاريات واقفات بهيئات مختلفـة ، فالواحدة منهنّ تحمل مشعالاً والثانية قيثارةً والثالثة مبخرةً والرابعة جرة من الخمر والخامسة غصناً من الورد والسادسة اكليلاً من الغار والسابعة قوساً وسهاماً وجميعهنّ ناظرات الى عشتروت وعَلَى وجوههنّ سيماء الخضوع والامتثال ·

وعَلَى الجدار الثاني صورة اخرى احدث عهداً واكثر ظهوراً تمثل يسوع الناصري مصلوباً والى جانبه امه الحزينة ومريم المجدلية وامرأتان ثانيتان تنتحبان · وهذه الصورة البيزنطية الاسلوب والقرائن تدل عَلَى كونها ُحفرت ـــفي

القرن الخامس او السادس للمسيح (١)

وفي الجدار الغربي كوّتان مستديرتان يدخل منهما شعاع الشمس عند اصيل النهار وينسكب عَلَى الصورتين فتظهران كأنهما قد طُليتا بماء الذهب·

وفي وسط المعبد حجر من الرخام مربع الشكل عَلَى جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد انحجب بعضها تحت كتلات متحجرة من الدماء تدل عَلَى ان الاقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم عَلَى هذا الحجر ويصبون فوقه قرابين الخمر والعطر والزيت·

---

(١) من المعلوم عند الاثريين ان اكثر الكنائس المسيحية في الشرق كانت هياكل ومعابد لآلهة الفينيقيين واليونان الاقدمين· ومما يستدعي التأمل وينبه الخيال انقلاب الهيكل كنيسةً ثم صيرورته جامعاً· ففي دمشق وانطاكية والاستانة أبنيـة عديدة ردّدت زواياها ترانيم الوثنيين ثم طُليت سقوفها ببخور المسيحيين ثم تبطنت جدرانها بصلوات المسلمين·

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيءٌ آخر سوى سكينة عميقة تعانق النفس وهيبة سحرية تبيح بتموجاتها اسرار الالهة وتتكلم بلا نطقٍ عن مآتي الاجيال الغابرة ومسير الشعوب من حالة الى حالة ومن دين الى دين · وتستميل الشاعر الى عالم بعيد عن هذا العالم وتقنع الفيلسوف بان الانسان مخلوق ديّنٌ يشعر بما لا يراه ويتخيل ما لا تقع عليه حواسه فيرسم لشعوره رموزاً تدل بمعانيها عَلَى خفايا نفسه ويجسم خياله بالكلام والانغام والصوَر والتماثيل التي تظهر باشكالها اقدس امياله في الحياة واجمل مشتهياته بعد الموت ·

في هذا الهيكل المجهول كنت التقي بسلمى كرامه مرةً في الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين الى الصورتين الغريبتين مفكرين بفتى الاجيال المصلوب فوق الجلجلة مستحضرين الى مخيلتينا اشباح الفتيان والصبايا الفينيقيين

الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشتروت فحرقوا البخور امام تماثيلها وهرقوا الطيوب عَلَى مذابحها ثم طوتهم الارض فلم يبقَ منهم سوى اسم تردده الايام امام وجه الابدية ·

كم يصعب عليَّ الان ان ادوّن بالكلام ذكرى تلك الساعات التي كانت تجمعني بسلمى — تلك الساعات العلوية المكتنفة باللذة والأَلم والفرح والحزن والأَمل واليأْس وكل ما يجعل الانسان انساناً والحياة لغزاً ابدياً · ولكن كم يصعب عليَّ ان اذكرها ولا ارسم بالكلام الضئيل خيالاً من خيالاتها ليبقى مثلاً لابناء الحب والكآبة

كنا نختلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابه ساندين ظهرينا الى جداره مرددين صدى ماضينا مستقصين مآتي حاضرنا خائفين مستقبلنا · ثم نتدرج الى اظهار ما في اعماق نفسينا فيشكو كلٌّ منا لوعته وحرقة قلبه وما يقاسيه

من الجزع والحسرة ، ثم يصبّر واحدنا الآخر باسطاً امامه كل ما جيوب الأَمل من الاوهام المفرحة والاحلام العذبة ، فيهدأُ روعنا وتجفّ دموعنا وتنفرج ملامحنا ثم نبتسم متناسيين كل شيءٍ سوى الحب وافراحه منصرفين عن كل امرٍ الاَّ النفس واميالها . ثم نتعانق فنذوب شغفاً وهياماً . ثم تقبل سلمى مفرق شعري بطهر وانعطاف فتملأُ قلبي شعاعاً واقبل اطراف اصابعها البيضاء فتغمض عينيها وتلوي عنقها العاجي وتتورد وجنتاها باحمرار لطيف يشابه الاشعة الأولى التي يلقيها الفجر عَلَى جباه الروابي . ثم نسكت وننظر طويلاً نحو الشفق البعيد حيث الغيوم المتلونة بانوار المغرب البرتقالية .

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصرةً عَلَى مبادلة العواطف وبث الشكوى بل كنا ننتقل عَلَى غير معرفة منا الى العموميات فنتبادل الاراء والافكار في شؤُون هذا العالم الغريب

ونتباحث في مرامي الكتب التي كنا نقرأُها ذاكرين حسناتها وسيئاتها وما تنطوي عليه من الصوَر الخيالية والمبادئ الاجتماعية ، فتتكلم سلمى عن منزلة المرأَة في الجامعة البشرية وعن تأْثير الاجيال الغابرة علَى اخلاقها واميالها وعن العلاقة الزوجية في ايامنا هذه وما يحيط بها من الامراض والمفاسد . واني اذكر قولها مرة « ان الكتّاب والشعراء يحاولون ادراك حقيقة المرأَة ولكنهم للآن لم يفهموا اسرار قلبها ومخبآت صدرها لانهم ينظرون اليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها او يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف والاستسلام »

وقولها لي مرةً اخرى وقد اشارت بيدها الى الرسمين المحفورين علَى جدران الهيكل « في قلب هذه الصخرة قد نقشت الاجيال رمزين يظهران خلاصة اميال المرأَة

ويستجليان غوامض نفسها المتراوحة بين الحب والحزن — بين الانعطاف والتضحية — بين عشتروت الجالسة عَلَى العرش ومريم الواقفة امام الصليب ··· ان الرجل يشتري المجد والعظمة والشهرة ولكن هي المرأة التي تدفع الثمن »

ولم يدرِ باجتماعاتنا السرّية احدٌ سوى الله واسراب العصافير المتطايرة بين تلك البساتين ، فسلمى كانت تجيءُ بمركبتها الى المكان المدعو بحديقة الباشا ثم تسير الهوينا عَلَى الممرات المنفردة حتى تبلغ المعبـد الصغير فتدخله مستندة عَلَى مظلتها وعَلَى وجهها لوائح الأمن والطمانينة فتجدني منتظراً مترقباً مشتاقاً بكل ما في الشوق من الجوع والعطش ·

ولم نخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير لان النفس اذا تطهرت بالنـار واغتسلت بالدموع تترفع عما

يدعوه الناس عيباً وعاراً وتتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التي سنتها التقاليد لعواطف القلب البشري وتقف برأس مرفوع امام عروش الآلهة

ان الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرناً الى الشرائع الفاسدة فلم تعد قادرةً عَلَى ادراك معاني النواميس العلوية الأولية الخالدة · قد تعودت بصيرة الانسان النظر الى ضوء الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع ان تحدق بنور الشمس · لقد توارثت الاجيال الامراض والعاهات النفسية بعضها عن بعض حتى اصبحت عمومية بل صارت من الصفات الملازمة للانسان فلم يعد الناس ينظرون اليها كعاهات وامراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية نبيلة انزلها الله عَلَى آدم فاذا ما ظهر بينهم فرد خالٍ منها ظنوه ناقصاً محروماً من الكمالات الروحية ·

اما الذين سيعيبون سلمى كرامه محاولين تلويث اسمها

لانها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتختلي برجل آخر فهم من السقماء الضعفاء الذين يحسبون الاصحاء مجرمين وكبار النفوس متمردين . بل هم كالحشرات التي تدب في الظلمة وتخشى الخروج الى نور النهار كيلا تدوسها اقدام العابرين .

ان السجين المظلوم الذي يستطيع ان يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جباناً . وسلمى كرامه كانت سجينة مظلومة ولم تستطع الانعتاق فهل تُلام لانها كانت تنظر من وراء نافذة السجن الى الحقول الخضراء والفضاء الوسيع ؟ هل يحسبها الناس خائنة لانها كانت تجيء من منزل منصور بك غالب لتجلس بجانبي بين عشتروت المقدسة والجبَّار المصلوب ؟ ليقل الناس ما شاءوا فسلمى قد اجتازت المستنقعات التي تغمر ارواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا يبلغه عوي الذئاب وفحيح الافاعي . وليقل الناس ما ارادوا

عني فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص ، والجندي الذي رأى السيوف محتبكة فوق رأسه وسواقي الدماء تجري تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التي يرشقه بها صبيان الازقة .



١٠

The Sacrifice

التضحيـــة



ففي يوم من اواخر حزيران وقد ثقلت وطأة الحرّ في السواحل وطلب الناس اعالي الجبال سرتُ كعادتي نحو ذلك المعبد واعداً نفسي بلقاء سلمى حاملاً بيديـــ كتاباً صغيراً من الموشحات الاندلسية التي كانت في ذلك العهد ولم تزل الى الان تستميل روحي ·

بلغت المعبد عند الاصيل فجلستُ ارقب الطريق المنسابة بين اشجار الليمون والصفصاف ، وانظر من وقت الى آخر الى وجه كتـــابي هامساً في مسامع الأَثير ابيات تلك الموشحات التي تستهوي القلب برشاقة تراكيبها ورنة

اوزانها وتعيد الى النفس ذكرى امجاد الملوك والشعراء والفرسان الذين ودعوا غرناطة وقرطبه واشبيلة تاركين في قصورها ومعاهدها وحدائقها كل ما في ارواحهم من الآمال والاميال ثم تواروا وراء حُجُب الدهور والدمع في اجفانهم والحسرة في اكبادهم ·

وبعد ساعة التفتُّ فاذا بسلمى تميس بقدها النحيل بين الاشجار المحتبكة وتقترب نحوي مستندةً عَلَى مظلتها كأَنها تحمل كل ما في العالم من الهموم والمتاعب · ولما بلغت باب الهيكل وجلست بقربي نظرتُ الى عينيها الكبيرتين فرأَيت فيهما معاني واسراراً جديدة غريبة توحي التحذر والانتباه وتثير حب الاستطلاع والاستقصاء ·

وشعرتْ سلمى بما يجول في خاطري فلم تشأْ ان يطول الصراع بين ظنوني وهواجسي فوضعت يدها عَلَى شعري وقالت « اقترب مني ، اقترب مني يا حبيبي ، اقترب

ودعني ازود نفسي منك فقد دنت الساعة التي تفرقنا الى الأَبد »

فصرختُ قائـلاً « ماذا تعنين يا سلمى وأَية قوّة تستطيع ان تفرقنا الى الأَبد ؟ »

فاجابت ان القوة العمياء التي فرقتنا بالامس ستفرقنا اليوم · القوة الخرساء التي تتخذ الشرائع البشرية ترجماناً عنها قد بَنتْ بايدي عبيد الحياة حاجزاً منيعاً بيني وبينك · القوة التي اوجدت الشياطين واقامتهم اولياء عَلَى ارواح الناس قد حتمت عليَّ ان لا اخرج من ذلك المنزل المبني من العظام والجماجم »

فسأَلتها قائلاً « هل علم زوجكِ باجتماعاتنا فصرتِ تخشين غضبه وانتقامه ؟ »

فاجابت « ان زوجي لا يحفل بي ولا يدري كيف اصرف ايامي فهو مشغول عني باولئك الصبايا المسكينات

اللواتي تقودهنَّ الفاقة الى اسواق النخاسين فيتعطرن ويتكحلنَ ليبعنَ اجسادهنَّ بالخبز المعجون بالدماء والدموع »

فقلتُ « اذاً ماذا يصدّكِ عن المجيء الى هذا المعبد والجلوس بجانبي امام هيبة الله واشباح الاجيال؟ هل مللتِ النظر الى خفايا نفسي فطلبت روحكِ الوداع والتفريق؟»

فاجابت والدمع يراود اجفانها « لا يا حبيبي . ان روحي لم تطلب فراقك لانك شطرها ولا ملَّت عينيَّ النظر اليك لانك نورهما . ولكن اذا كان القضاء قد حكم عليَّ ان اسير علَى عقبات الحياة مثقلةً بالقيود والسلاسل فهل ارضى بان يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبي ؟ »

فقلتُ « تكلمي يا سلمى واخبريني عن كل شيءٍ ولا تتركيني ضائعاً بين هذه المعمَّيات »

فاجابت « لا اقدر ان اقول كل شيءٍ لان اللسان الذي اخرسته الاوجاع لا يتكلم والشفاه التي ختم عليها

اليأسُ لا تحترك وكل ما اقدر ان اقوله لك هو اني اخاف عليك من الوقوع في شرك الذين نصبوا لي الحبائل واصطادوني »

فقلت « ماذا تعنين يا سلمى ومن هم الذين تخافين عليَّ منهم ؟ »

فسترت وجهها بيديها وتأوهت ملتاعةً ثم قالت مترددةً « ان المطران بولس غالب قد صار يعلم بانني اخرج مرّةً في الشهر من القبر الذي وضعني فيه »

فقلتُ « وهل علم المطران بانكِ تلتقين بي في هذا المكان ؟ »

فاجابت « لو علم بذلك لما رأَيتني الان جالسةً بقربك ، ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بافكاره وقد بثّ عليَّ العيون لترقبني واوعز الى خدمه ليتجسسوا حركاتي حتى صرت اشعر بان للمنزل الذي اسكنه

والطرقات التي اسير عليها نواظرُ تحدق بي واصابعُ تشير اليَّ وآذان تسمع همس افكاري »

واطرقتْ هنيهةً ثم زادت والدمع ينسكب عَلَى وجنتيها « انا لا اخاف عَلَى نفسي من المطران لان الغريق لايخشى البلل ، ولكنني اخاف عليك وانت حرٌّ كنور الشمس ان تقع مثلي في اشراكه فيقبض عليك باظافره وينهشك بانيابه . . انا لا اخاف من الدهر لانه افرغ جميع سهامه في صدري ولكنني اخاف عليك وانت في ربيع العمر ان تلسع الافعى قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمة الجبل حيث ينتظرك المستقبل بافراحه وامجاده »

فقلتُ « ان مَن لا تلسعه افاعي الايام وتنهشه ذئاب الليالي يظل مغروراً بالايام والليالي . ولكن اسمعي يا سلمى ، اسمعيني جيداً ، أَليس امامنا غير الفراق لنتقي صغارة الناس وشرورهم ؟ هل سُدَّت امامنا سبل الحب والحياة والحرّية

فلم يبقَ غير الاستسلام الى مشيئة عبيد الموت ؟ »

فاجابتْ بلهجة يساورها القنوط والحسرة « لم يبق امامنا غير الوداع والتفرق »

فاخذتُ يدها وقد تمردت روحي في داخلي وتبدد الدخان عن شعلة فتوتي فقلتُ متهيجاً « قد استسلمنا طويلاً الى اهواء الناس يا سلمى ·· منذ تلك الساعة التي جمعتنا حتى الان ونحن ننقاد الى العميان ونركع امام اصنامهم · مذ عرفتكِ ونحن في يد المطران بولس غالب مثل كرتين يلعب بنا كيفما اراد ويقذفنا حيثما شاءَ ، فهل نبقى خاضعين لديه محدقين بظلمة نفسه حتى يلوكنا القبر وتبتلعنا الارض ؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت اقدام الموت ، واعطانا الحرّية لنجعلها ظلاً للاستعباد ؟ ان مَن يخمد نار نفسه بيده يكون كافراً بالسماء التي اوقدتها · ومَن يصبر عَلَى الضيم ولا يتمرد عَلَى الظلم يكون حليف

البطل عَلَى الحق وشريك السفاحين بقتل الابرياء . قد احببتك يا سلمى واحببتني والحب كنز ثمين يودعه الله النفوس الكبيرة الحساسة ، فهل نرمي بكنزنا الى حظائر الخنازير لتبعثره بانوفها وتذريه بارجلها ؟ امامنا العالم مسرحاً وسيعاً مملوءاً بالمحاسن والغرائب فلماذا نسكن في هذا النفق الضيق الذي حفره المطران واعوانه ؟ امامنا الحياة وما في الحياة من الحرّية وما في الحرّية من الغبطة والسعادة فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا ونكسر القيود الموثوقة بارجلنا ونسير الى حيث الراحة والطمأنينة ؟ قومي يا سلمى نذهب من هذا المعبد الصغير الى هيكل الله الاعظم . هلمي نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبودية والغباوة الى بلاد بعيدة لا تطالها ايدي اللصوص ولا تبلغها لهات الابالسة .. تعالي نسرع الى الشاطئ مستترين بوشاح الليل فنعتلي سفينة تقلنا الى ما وراء البحار وهناك نحيي حياة

جديدة مكتنفة بالطهر والتفاهم ، فلا تلوثنا الثعابين بانفاسها ولا تدوسنا الضواري باقدامها · لا تترددي يا سلمى فهذه الدقائق اثمن من تيجان الملوك واسمى من سرائر الملائكة · قومي نتبع عمود النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة الى حقول تنبت الازاهر والرياحين »

فهزّت رأسها وقد شخصت عيناها بشيء غير منظور في فضاء ذلك الهيكل ، وسالت عَلَى شفتيها ابتسامة محزنة تعلن ما في داخل نفسها من الشدة والأَلم ، ثم قالت بهدوءٍ « لا لا يا حبيبي ، ان السماء قد وضعت في يدي كأساً مفعمةً بالخلّ والعلقم وقد تجرعتها صرفاً ولم يبقَ فيها غير قطرات قليلة سوف اشربها متجلدةً لأَرى ما في قعر الكأس من الاسرار والخفايا · اما تلك الحياة الجديدة العلوية المكتنفة بالمحبة والراحة والطمأنينة فانا لا استحقها ولا اقوى عَلَى احتمال افراحها وملذاتها ، لان الطائر المكسور

الجناحين يدب متنقلاً بين الصخور ولكنه لا يستطيع ان يسبح محلقاً في الفضاء ، والعيون الرمداء تحدق بالاشياء الضئيلة ولكنها لا تقوى عَلَى النظر الى الانوار الساطعة ، فلا تحدثني عن السعادة لان ذكرها يؤلمني كالتعاسة ، ولا تصوّر لي الهناءَ لان ظله يخيفني كالشقاء ٠٠ ولكن انظر اليَّ لأريك الشعلة المقدسة التي اوقدتها السماء بين رماد صدري ٠٠ انت تعلم بانني احبك محبة الأم وحيدها وهي المحبة التي علمتني ان احميك حتى ومن نفسي ٠ هي المحبة المطهرة بالنار التي توقفني الان عن اتباعك الى اقاصي الارض وتجعلني ان اميت عواطفي واميالي لكي تحيي انت حرًّا نزيهاً وتظل في مأمنٍ من لوم الناس وتقولاتهم الفاسدة ٠ ان المحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب اما المحبة الغير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها ٠٠ المحبة التي تجيء بين يقظة الشباب وغفلته تستكفي باللقاء وتقنع بالوصل

وتمو بالقبل والعناق ، اما المحبة التي تولد في احضان اللا نهاية وتهبط مع اسرار الليل فلا تقنع بغير الأَبدية ولا تستكفي بغير الخلود ولا تقف متهيبةً امام شيءٍ سوى الالوهية ... عندما عرفت بالامس بان المطران بولس غالب يريد ان يمنعني عن الخروج من منزل ابن اخيه ويسلبني اللذة الوحيدة التي عرفتها منذ تزوجت ، وقفتُ امام نافذة غرفتي ونظرت نحو البحر مفكرةً بما وراءه من البلاد الوسيعة والحرّية المعنوية والاستقلال الشخصي ، وتخيلتُ نفسي عائشةً بقربك ، محاطةً بخيالات روحك ، مغمورة بانعطافك ، ولكن هذه الاحلام التي تنير صدور النساء المظلومات وتجعلهنّ ان يتمردنَ عَلَى التقاليد الباطلة ليعشنَ في ظل الحق والحرّية لم تمرّ في خاطري حتى جعلتني ان استصغر نفسي واستضعفها وان أَرى محبتنا واهية محدودة لا تستطيع الوقوف امام وجه الشمس ، فبكيت

بكاءَ ملك اضاع ملكه وغنيّ فقد كنوزه ، ولكنني ما لبثتُ ان رأَيت وجهك من خلال دموعي وابصرت عينيك محدقتين بي فتذكرت ما قلتهُ لي مرة وهو (هلمي يا سلمى نقف امام الاعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا بظهورنا فان صُرعنا نمت كالشهداء وان تغلبنا نعش كالابطال، لان عذاب النفس بثباتها امام المصاعب والمتاعب هو اشرف من تقهقرها الى حيث الأُمن والطمأنينة) .. هذه الكلمات قلتها لي يا حبيبي عندما كانت اجنحة الموت ترفرف حول مضجع والدي ، وقد ذكرتها بالامس وقد كانت اجنحة اليأس تصفق حول رأسي : فتقويتُ وتشجعتُ وشعرتُ وانا في ظلمة السجن بنوع من الحرّية النفيسة التي تستهون الشدائد وتستصغر الاحزان ، ورأَيتُ حبنا عميقاً كالبحر عالياً كالنجوم متسعاً كالفضاء ، وقد جئت اليوم اليك وفي نفسي المتوجعة المنهوكة قوة جديدة وهي

المقدرة عَلَى تضحية الأَمر العظيم للحصول عَلَى امر اعظم — تضحية سعادتي بقربك لكي تبقى انت شريفاً بعرف الناس بعيداً عن غدرهم واضطهادهم ··· كنت اجيء بالامس الى هذا المكان والقيود الثقيلة تغل قدميَّ الضعيفتين اما اليوم فقد جئتُ شاعرة بعزم يهزأُ بثقل القيود و يستقصر الطريق· كنت اجيء مثل طيف طارق خائف ، اما اليوم فقد جئت مثل امرأَة حية تشعر بوجوب التضحية وتعرف قيمة الاوجاع وتريد ان تحمي مَن تحبه من الناس الاغبياء ومن نفسها الجائعة · كنتُ اجلس حذاءَكَ مثل ظلٍ مرتجف وقد أَتيتُ اليوم لأُريك حقيقتي امام عشتروت المقدسة و يسوع المصلوب· انا شجرة نابتة في الظل وقد مددت اغصاني اليوم لكي ترتعش ساعة في نور النهار·· قد جئت لاودعك يا حبيبي فليكن وداعنا عظيماً وهائلاً مثل حبنا — ليكن وداعنا كالنار التي تهصر الذهب

لتجعله اشد لمعاناً »

ولم تترك لي سلمى مجالاً للكلام والاحتجاج بل نظرت اليَّ وقد ابرقت عيناها فاحاطت اشعتهما بوجداني واتشحت ملامح وجهها بنقاب من الهيبة والجلال فبانت كمليكة توحي الصمت والتخشع ، ثم ارتمت عَلَى صدري بانعطاف كليّ ما عهدته فيها قبل تلك الساعة وطوّقت عنقي بزندها الاملس وقبلت شفتيَّ قبلة طويلة عميقــة محرقة ايقظت الحياة في جسدي واثارت الاسرار الخفية في نفسي وجعلت الذات الوضعية التي ادعوها (انا) ان تتمرد عَلَى العالم بأَسرهِ لتخضع صامتةً امام الناموس العلوي الذي اتخذ صدر سلمى هيكلاً ونفسها مذبحاً .

. . . .

ولما غربت الشمس وامحت اشعتها الاخيرة عن تلك الحدائق والبساتين انتفضت سلمى ووقفت في وسط الهيكل

ونظرت طويلاً الى جدرانه وزواياه كأنها تريد ان تسكب نور عينيها عَلَى رسومه ورموزه ثم تقدمت قليلاً وجثت خاشعةً امام صورة يسوع المصلوب وقبلت قدميه المكلومتين مرات متوالية ثم همست قائلة « ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري وتركتُ مسرات عشتروت وافراحها ، قد كللتُ رأسي بالاشواك بدلاً من الغار ، واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطيوب ، وتجرعت الخلَّ والعلقم بالكأس التي صُنعت للخمر والكوثر ، فاقبلني بين تابعيك الاقوياء بضعفهم وسيرني نحو الجلجلة برفقة مختاريك المستكفين باوجاعهم المغبوطين عَلَى كآبة قلوبهم »

ثم انتصبتْ والتفت نحوي قائلةً « سأعود الان فرحةً الى الكهف المظلم حيث تتراكض الاشباح المخيفة فلا تشفق عليَّ يا حبيبي ولا تحزن من اجلي لان النفس التي

ترى ظل الله مرّةً لا تخشى بعد ذلك اشباح الابالسة ، والعين التي تكتحل بلمحة واحدة من الملإ الاعلى لا تغمضها اوجاع هذا العالم »

وخرجت سلمى من ذاك المعبد ملتفةً بملابسها الحريرية وتركتني حائراً ضائعاً مفكراً مجذوباً الى مسارح الرؤيا حيث تجلس الآلهة عَلَى العروش وتدون الملائكة اعمال البشر وتتلو الارواح مأساة الحياة وتترنم عرائس الخيال بأناشيد الحب والحزن والخلود .

ولما صحوتُ من هذه السكرة وكان الليل قد غمر الوجود بامواجه القاتمة ، وجدتني هائماً بين تلك البساتين مسترجعاً الى حافظتي صدى كل كلمة لفظتها سلمى معيداً الى نفسي حركاتها وسكناتها وملامح وجهها وملامس يديها ، حتى اذا ما اتضحت لي حقيقة الوداع وما سيجيء بعده من ألم الوحشة ومرارة الشوق جمدت فكرتي وتراخت

خيوط قلبي وعلمت للمرة الاولى بان الانسان وإن وُلد حراً يظل عبداً لقساوة الشرائع التي سنها آباؤهُ واجداده ، وان القضاء الذي نتوهمه سرًّا علوياً هو استسلام اليوم الى مآتي الامس ، وخضوع الغد الى اميال اليوم . . وكم مرَّةً فكرتُ منذ تلك الليلة الى هذه الساعة بالنواميس النفسية التي جعلت سلمى ان تختار الموت بدلاً من الحياة . وكم مرَّة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين لارى ايهما اجلّ واجمل ، ولكنني للان لم افهم سوى حقيقة واحدة وهي ان الاخلاص يجعل جميع الاعمال حسنة وشريفة ، وسلمى كرامه كانت الاخلاص متأنساً وصحة الاعتقاد متجسدةً .

***

The Deliverer

١١

المنقذ

ومرَّت خمسة اعوام عَلَى زواج سلمى ولم ترزق ولداً ليوجد بكيانه العلاقة الروحية بينها وبين بعلها ويقرب بابتساماته نفسيهما المتنافرتين مثلما يجمع الفجر بين اواخر الليل واوائل النهار.

والمرأة العاقر مكروهة في كل مكان لان الانانية تصور لاكثر الرجال دوام الحياة في اجساد الابناء فيطلبون النسل ليظلوا خالدين عَلَى الارض

ان الرجل المادي ينظر الى زوجته العاقر بالعين التي يرى بها الانتحـــار البطئ فيمقتها ويهجرها ويطلب حتفها كانها عدو غدار يريد الفتك بهِ. ومنصور بك غالب كان مادياً كالتراب وقاسياً كالفولاذ وطامعاً كالمقبرة وكانت

رغبته بابنٍ يرث اسمه وسؤدده تكرّهه بسلمى المسكينة وتحول محاسنها في عينيه الى عيوب جهنمية..

ان الشجرة التي تنبت في الكهف لا تعطي ثمراً، وسلمى كرامه كانت في ظل الحياة فلم تثمر اطفالاً. ان البلبل لا يحوك عشاً في القفص كيلا يورث العبودية فراخه، وسلمى كرامه كانت سجينة الشقاء فلم تقسم السماء حياتها الى أسيرين. ان ازاهر الاودية هي اطفال يلدها انعطاف الشمس وشغف الطبيعة، واطفال البشر ازاهر يلدها الحب والحنو، فسلمى كرامه لم تشعر قط بانفاس الحنو وملامس الانعطاف في ذلك المنزل الفخم القائم علَى شاطئ البحر في رأس بيروت، ولكنها كانت تصلي في سكينة الليالي ضارعةً امام السماء لتبعث اليها بطفل يجفف باصابعه الوردية دموعها ويزيل بنور عينيه خيال الموت عن قلبها.

وقد صلت سلمى متوجعةً حتى ملأَت الفضاء صلاةً وابتهالاً ، وتضرعت مستغيثةً حتى بدد صراخها الغيوم ، فسمعت السماء نداءَها وبثت في احشائها نغمـةً مختمرة بالحلاوة والعذوبة واعدتها بعد خمسة اعوام من زواجها لتصيرها اماً وتمحو ذلها وعارها ·

الشجرة النابتة في الكهف قد ازهرت لتثمر ·

البلبل المسجون في القفص قد همَّ ليحوك عشاً من ريش جناحيه ·

القيثارة التي طُرحت تحت الاقدام قد وُضعت في مهب نسيم المشرق ليحرك بامواجه ما بقي من اوتارها ·

سلمى كرامه المسكينة قد مدَّت ذراعيها المكبلتين بالسلاسل لتقتبل موهبة السماء ·

وليس بين افراح الحياة ما يضارع فرح المرأَة العاقر عندما تهيئها النواميس الازلية لتصيرها اماً · كل ما في يقظة

الربيع من الجمال ، وكل ما في مجيء الفجر من المسرة يجتمع بين اضلع المرأة التي احرمها الله ثم اعطاها ٠

لا يوجد نور اشد سطوعاً واكثر لمعاناً من الاشعة التي يبعثها الجنين السجين في ظلمة الاحشاء ٠

وكان نيسان قد جاء متنقلاً بين الروابي والمنحدرات عند ما تمت ايام سلمى لتلد بكرها ، وكأن الطبيعة قد وافقتها وعاهدتها فأخذت تضع حمل ازاهرها وتلف باقمطة الحرارة اطفال الاعشاب والرياحين ٠

مضت شهورُ الانتظار وسلمى تترقب الخلاص مثلما يترقب المسافر طلوع كوكب الصباح ، وتنظر الى المستقبل من وراء دموعها فتراه مشعشعاً وقد طالما ظهرت الاشياء القاتمة متلمعةً من خلال الدموع ٠

ففي ليلةٍ وقد طافت اشباح الظلام بين تلك المنازل في رأس بيروت ، انطرحت سلمى عَلَى مضجع المخاض

والاوجاع ، فانتصب الموت والحيـاة يتصارعان بجانب فراشها ، ووقف الطبيب والقابلة ليقدما الى هذا العالم ضيفاً جديداً ، وسكنت حركة عابري الطريق وانخفضت نغمة امواج البحر ولم يعد يُسمع في ذلك الحي سوى صراخ هائل يتصاعد من نوافذ منزل منصور بك غالب ٠٠ صراخ انفصال الحياة عن الحياة ٠٠ صراخ محبة البقاء في فضـاء اللاشيء والعدم ٠٠ صراخ قوة الانسان المحدودة امام سكينة القوى الغير المتناهية ٠٠ صراخ سلمى الضعيفـة المنطرحة تحت اقدام جبارين الموت والحياة ٠

عندما لاح الفجر ولدت سلمى ابناً ، ولما سمعت اهلاله فتحت عينيها المغلفتين بالأَلم ونظرت حواليها فرأَت الاوجه متهللةً في جوانب تلك الغرفة ، ٠٠ ولما نظرت ثانيةً رأَت الحياة والموت ما زالا يتصارعان بقرب مضجعهـا فعادت واغمضت عينيها وصرخت لاول مرة « يا ولدي » ٠

ولفت القابلة الطفل بالاقمطة الحريرية ووضعته حذاء امهِ ، اما الطبيب فظل ينظر بعينين حزينتين نحو سلمى ويهزّ رأسه صامتاً بين الدقيقة والاخرى ·

وايقظت نغمة الفرح بعض الجيران فجاءوا بملابس النوم ليهنئوا الوالد بولده ، اما الطبيب فبقي ينظر بعينين كئيبتين نحو الوالدة وطفلها ·

واسرع الخدم نحو منصور بك ليبشروه بقدوم وريثه ويملأُوا ايديهم من عطاياه ، اما الطبيب فلبث واقفاً ينظر بعينين يأُستين الى سلمى وابنها ·

ولما طلعت الشمس قربت سلمى ولدها من ثدييها ففتح عينيه لاول مرة ونظر في عينيها ثم اختلج واغمضهما لآخر مرة · فدنا الطبيب وأَخذه من بين ذراعيها وانسكبت عَلَى وجنتيه دمعتان كبيرتان ثم همس في سرّهِ قائلاً « هو زائر راحل ! »

مات الطفلُ وسكان الحيّ يفرحون مع الوالد في القاعة الكبرى ويشربون نخبه ليعيش طويلاً ، وسلمى المسكينة تحدق بالطبيب وتصرخ قائلة « اعطني ولدي لاضمه » ثم تحدق ثانيةً فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها ·

مات الطفل ورنة الكؤوس تنمو وتتكاثر بين ايدي الفرحين بمجيئهِ ·

وُلد مع الفجر ومات عند طلوع الشمس ··

وُلد مع الفجر ومات عند طلوع الشمس فأيُّ بشريّ يستطيع ان يقيس الزمن ليخبرنا ما اذا كانت الساعة التي تمرّ بين مجيء الفجر وطلوع الشمس هي اقصر من الدهر الذي يمرّ بين ظهور الامم وتواريها ·

وُلد كالفكر ومات كالتنهدة واختفى كالظل فاذاق سلمى كرامه طعم الأمومة ولكنه لم يبقَ ليسعدها ويزيل

يد الموت عن قلبها ··

حياةٌ قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بابتداء النهار فكانت مثل قطرة الندى التي تسكبها اجفان الظلام ثم تجففها ملامس النور ··

كلمة لفظتها النواميس الازلية ثم ندمت عليها واعادتها الى سكينة الابدية ··

لؤلؤة قذفها المدّ الى الشاطئ ثم جرفها الجزر الى الاعماق ··

زنبقة ما انبثقت من كمام الحياة حتى انسحقت تحت اقدام الموت ··

ضيفٌ عزيز ترقبت سلمى قدومه ولكنه ما حلّ حتى ارتحل وما فتح مصرعي الباب حتى اختفى ··

جنينٌ ما صار طفلاً حتى صار تراباً — وهذه حياة الانسان · بل حياة الشعوب ، بل حياة الشموس والاقمار

والكواكب ..

وحوّلت سلمى عينيها نحو الطبيب وتنهدت بشوق جارح ثم صرخت قائلةً « اعطني ابني لاضمهُ بذراعيّ ... اعطني ولدي لارضعهُ .. »

فنكس الطبيب رأسهُ وقال والغصات تخرسه « قد مات طفلكِ ياسيدتي فتجلدي وتصبري لكي تعيشي بعده »

فصرخت سلمى بصوت هائل ثم سكتت هنيهة ، ثم ابتسمت ابتسامة فرح ومسرة ، ثم تهلل وجهها كأنها عرفت شيئاً لم تكن تعرفه وقالت بهدوءٍ « اعطني جثة ولدي . قرّبه مني ميتاً »

فحمل الطبيبُ الطفلَ الميت ووضعه بين ذراعيها فضمته الى صدرها وحوّلت وجهها نحو الحائط وقالت تخاطبه « قد جئتَ لتأخذني ياولدي . قدجئت لتدلني علَى الطريق المؤدية الى الساحل . هاءنذا ياولدي فسر امامي لنذهب من

هذا الكهف المظلم »

وبعد دقيقة دخلت اشعة الشمس من بين ستائر النافذة وانسكبت عَلَى جسدين هامدين منطرحين عَلَى مضجع تخفره هيبة الامومة وتظلله اجنحة الموت

فخرج الطبيب باكياً من تلك الغرفة ، ولما بلغ القاعة الكبرى تبدلت تهاليل المهنئين بالصراخ والعويل ، اما منصور بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهد ولم يذرف دمعة ولم يفه بكلمة بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً بيمينه عَلَى كاس الشراب

. . . .

وفي اليوم التالي كفنت سلمى باثواب عرسها البيضاء ووضعت في تابوت موشى بالمخمل الناصع ، اما طفلها فكانت اقمطته اكفانه وتابوته ذراعي أُمهِ وقبره صدرها الهادئ

حملوا الجثتين في نعش واحد ومشوا ببطء متلف يشابه طرقات القلوب في صدور المنازعين فسار المشيعون وسرتُ

بينهم وهم لا يعرفونني ولا يدرون ما بي

بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يرتل ويعزّم ووقف الكهان حوله ينغمون ويسبحون وعلى وجوههم الكالحة نقاب من الخلو والغفول .

ولما انزلوا التابوت الى اعماق الحفرة همس احد الواقفين قائلاً « هذه اول مرة رأيت جسدين يضمهما تابوت واحد »

وقال آخر « كأن طفلها قد جاء ليأخذها وينقذها من مظالم زوجها وقساوته »

وقال آخر « تأملوا بوجه منصور بك فهو ينظر الى الفضاء بعينين زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله في يوم واحد »

وقال اخر « غداً يزوجه عمه المطران ثانيةً من امرأة اخرى اوفر ثروةً واقوى جسماً »

وظلّ الكهان يرتلون ويسبحون حتى فرغ حفار القبور

من ردم الحفرة فاخذ المشيعون اذ ذاك يقتربون واحداً واحداً من المطران وابن اخيه يصبرونهما ويوأسونهما بمستعذبات الكلام ، اما انا فبقيت واقفاً منفرداً وحدي وليس من يعزيني عَلَى مصيبتي كأن سلمى وطفلها لم يكونا اقرب الناس اليّ

عاد المشيعون وبقي حفار القبور منتصباً بجانب القبر الجديد وفي يده رفشه ومحفره ، فدنوت منه وسألته قائلاً « أَتذكر اين قُبر فارس كرامه »

فنظر اليّ طويلاً ثم اشار نحو قبر سلمى وقال « في هذه الحفرة قد مددت ابنته على صدره ، وعلى صدر ابنته قد مددت طفلها ، وفوق الجميع قد وضعتُ التراب بهذا الرفش »

فاجبته « وفي هذه الحفرة ايضاً قد دفنت قلبي ايها الرجل فما اقوى ساعديك »

ولما توارى حفار القبور وراء اشجار السرو خانني الصبر والتجلد فارتميت على قبر سلمى ابكيها وارثيها

تمت

January 28 - 1912

Miss Mary E. Haskell
314 Marlboro' St.
Boston
Mass

Personal

From
G. K. Gibran
51 W. 10th St.
New York